(نصوص وجودية)

دوائر ظل آبق بلا صاحب

عبد الرحمان علواني

دوائر ظل آبق
بلا صاحب

(نصوص وجودية)

تأليف

عبد الرحمان علواني

بسم الله الرحمان الرحيم

مقدمة_ الاستهلال

استيقظ الآبق في غرفة بلا أبواب، الجدران باردة كأنها لم تعرف دفء الشمس، السقف يمتد ولا امتداد له، الأرضية تحمل آثار أقدامه هو فقط، لم يخط عليها أحد قبله،لا نوافذ، ولا مرايا ولا حتى صدى لصوته ، هو، فقط هو... وظله الذي لا ينفصل عنه أبدا، تساءل: هل أنا من يسير، أم أن الظل هو من يقودني، أم أكون أنا ظلا لظلي؟

لكنه لم يكن متأكدا إن كان ذلك أول استيقاظ له، أم أنه ظل يستيقظ هكذا مرارا دون أن يدرك، الزمن ليس خطأ، بل دائرة تلف عنقه، تدور وتدور، حتى يظن أنه يقترب من نقطة نهاية، لكنه دائما يعود إلى البداية.

كان يهرب، لكن مم؟ لا أحد يطارده، لا سلاسل تكبله ولا جدران تعترض طريقه. ومع ذلك، كان في داخله يقين بأنه محاصر، لم تكن هناك قيود حول معصميه، بل شيء أعمق، شيء ثقيل...

وقف، تحسس جسده كما لو كان يراه للمرة الأولى، هل هذا جسده حقا؟ هل كان يملك ملامح من قبل؟ حاول أن يتذكر اسمه، لكن كل الأسماء بدت كاذبة، حاول أن يسترجع وجهه، لأن ملامحه لم تكن ثابتة، لكنها كانت جميعا تتلاشى في العدم.

من أنا؟

ما الذي يجعل الإنسان هو نفسه؟

هل هو اسمه؟

ذاكرته؟

ماهيته؟

لكن ماذا لو فقد كل ذلك؟

ألن يكون هو حينها؟

ماذا لو لم يكن سوى أثر لشيء لم يوجد قط؟

كل الطرق تنتهي إلى حيث لا يريد، عند الباب ذاته، كل الأسماء لم تعد تخصه، لا شيء ثابت، لا شيء يتغير...

سوى أنه صار يدرك شيئا واحدا:

أنه الآبق.

الهوية والذات

مرآة بلا انعكاس

وقف الآبق أمام المرآة، حدق فيها مطولا، كانت باردة صامتة، اعتادها هكذا، لكن أين هو؟ كان من المفترض أن يكون هناك، ينظر إلى نفسه، حين حاول لمس أنفه، كان موجودا هناك يتوسط وجهه، لكن المرآة لم تظهر ذلك، لم ير ملامحه المعتادة، حتى حين حدق في المرآة اعتقد أن انعكاسه في مكان آخر ربما، مد يده تجس السطح الأملس، لكنه لم يلمس شيئا سوى الفراغ، حين تنحى من أمام المرآة ونظر إلى جانبها رآها تعكس الحائط المقابل، لم تكن مغبشة أو مكسورة إذا، أو حتى معطلة، لا تتعطل المرايا، لكن ربما حدث ذلك هذه المرة، لم يكن الظلام حاضرا أيضا، كل شيء في مكانه باستثناء شيء واحد:

هو نفسه.

كان يمر أمام المرآة، حين التفت إليها بغتة،

-ترى هل تخلى عنه انعكاسه أيضا، ترى هل في هذه الأثناء بينما ينتظر من عينيه أن ترمقانه، ترمقان هما شخصا آخر في مرآة أخرى؟

شعر بوخزة باردة في صدره،

-ماذا لو أن المرآة لم تعكس صورته أبدا؟ ماذا لو كان مجرد وهم؟ أو ربما مجرد فكرة؟ ماذا لو لم يكن هذا من الأساس؟

التفت بحدة إلى الخلف، بحث عن أي أثر؟ أي ظل؟ أي دليل يفيد وجوده، لكن لم يكن هناك دليل.

أرعبته الفكرة فتراجع عنها، ماذا لو أنه فقط أصبح غير مرئي؟ أحاله هذا أيضا إلى أنه فقد وجوده، لم تزل سوى فكرة أخيرة، ربما تعكس المرايا الواقع بينما ترفض الواقع الذي يتلاشى تدريجيا، ربما كان قد تغير فرفضته المرآة، لم تعكس وجوده الجديد، يفيد ذلك أيضا أنه لم يعد موجودا.

و ربما ، ربما فقط تكره المرآة الآبق.

الاسم الذي لا يخصني

وصلته رسالة غير متوقعة، كانت مغلفة بعناية، دون اسم مرسل، دون تاريخ، كانت رسالة دون هوية، فتحها ببطء ومر على حروفها بحذر.

"إلى نذير:

أعلم أنك لا تتذكرني جيدا، لكنني أعرفك تماما، أعرف أين تعيش، متى تستيقظ، كيف تفكر، حتى تلك اللحظات التي تتظاهر فيها أنك لست خائفا؟ أنت تفكر كثيرا؟ أليس كذلك؟ فكرت كثيرا أمام المرآة تلك المرة؟ تتساءل لماذا لم تجد إجابة واحدة ثابتة؟ ببساطة، لأنه لا يوجد، الإجابات ليست حلولا، إنها أسئلة جديدة يا نذير الدائرة، هذه الرسالة ليست تهديدا، بل مجرد تذكير.

أنت لست أنت، لم تكن دائما ما أنت عليه الآن، ربما حان الوقت لتتذكر."

توقف الآبق للحظة، ابتلع ريقه، لم يكن اسمه نذير، لكن الرسالة تتحدث عنه حتما، هو تحديدا وليس شخصا آخر.

بحث في الظرف وفي زوايا الورقة، وعلى الجانب الأيمن منها قرأ

"أنت نذيري، لا تدع الاسم يخدعك، ما تحمله الآن هو أنت ولكنه ليس لك."

حاول لأن يضحك، لكن صوته لم يستجب، لم يكن اسمه نذير صحيح؟ لم يكن كذلك أبدا؟ ومع ذلك بدأ الشك يتسلل إلى قلبه، فكر للحظة، ربما كان الجميع متماثلين، ربما كانت الرسالة فقط موجهة لشخص آخر، شخص يدعى نذير، أم هل يمكن أنني أنا من يعيش حياة نذير هنا؟

عاد إلى الورقة ليقرأها، ما الذي تفعله ياء الملكية مسبوقة باسمه؟ مهلا، ليس اسمه، أو ربما هو كذلك، فكر، ربما هي رسالة من فتاة محبة؟ وجد نفسه يقول:

-أو ربما هي من صاحب الظل؟

اتسعت عيناه بذعر، ما الذي تفوه به؟

حياة معارة

استيقظ الآبق من نومه، شعر أن شيئا ما قد تغير، شيء ما حوله، الحجرة لم تكن مألوفة بطلائها الفاقع وجدرانها الدافئة، لم يكن يملك أريكة، فما الذي يوجد هناك؟ لم يفكر يوما بشراء شيء مماثل فلم يكن يملك حقا رفاهية الجلوس على الرياش، حين حاول النهوض ليرى ما حل به، كان عاجزا، جسده ثقيل بشكل غريب، كانت أطراف أصابعه لا تستجيب لإشارات عقله، أو ربما لم يتلق العقل رغباته، نظر إلى يده، وجدها غريبة، أصابع نحيلة، جلد أملس يشع بالحياة، لم تكن يديه، لكنها كانت جزء منه.

هذا ليس جسده، الغرفة ليست غرفته، لكن، رغم ذلك كان يشعر بشيء غريب، كان هو.

تقاطع نظره مع انعكاسه على المرآة، كان هناك هذه المرة، بملامح أخرى وتعبيرات غريبة، صحيح أنه حين لمس نفسه لم يشعر بجسده، لكنه حتما يشعر بنفسه، -هل الهوية مرتبطة بالروح حقا؟ ربما هي ليست مجرد تجسيد مادي، بتجاربها وأحاسيسها قد تكون هي نحن حقا، ربما الجسد هو مجرد وعاء مؤقت، قد تكون الروح هي مفتاح الوجود الفعلي؟

ارتدى ملابسه ببطء، فوجد نفسه يخطو في مكان آخر، يتنفس هواء آخر، لكنه رغم ذلك، كان يشعر بنفسه، إنه الآن يعيش حياة شخص آخر دون أن يفقد نفسه، ربما يمكن للإنسان أن يحافظ على جوهره الداخلي رغم ما قد يمر به من أمور يكون مجبرا فيها على ألا يكون هو حقا.

فكر بعد كل هذا، أنه ليس شبحا بدور محدد، إنه الآبق بعد كل شيء، إنه لا يتقمص دورا على خشبة الحياة، بل يصنع دوره الخاص.

أنا الذي كان يجب أن أكونه

لا يجيد الآبق معرفة الزمن، لكنه في جزء ما من الزمن، كان يسير في شارع مزدحم، حتى ربت شخص على كتفه، تجاهله وواصل المسير، هو لا يسعد أن يخاطب الجميع، فلو كانوا يستحقون المخاطبة ما أبق، لكن المربت كان مصرا كل الإصرار، لذا دون أن يلتفت الآبق حمل اليد وحاول رميها، لكنه استشعر نتوءا غريبا في الأصابع ذكره ذلك بأصابع يده اليمنى، استدار ليواجه الآخر، كان أحدهم، يحمل نفس الملامح، القامة المتوسطة، فقط عيني الأحدهم كانت مختلفة، كانت لامعة ونابضة، انتظر الآبق مشدوها، تكلم الأحدهم:

-أنت تعرفني، أليس كذلك؟

كانت نبرته مماثلة لخاصته، شعر بشيء غريب غي تلك اللحظة، الشخص الذي أمامه، هو نسخة أخرى منه، أو ربما هو شيء آخر، ينتمي أحدهما إلى الآخر، لكنه يعيش حياة مختلفة تماما، مليئة بقرارات دون تفكير، كان كتلة من اللحم تعيش بمرح بهيمي، أوقف سيل أفكاره صوت الأحدهم:

-لماذا اخترت هذا الطريق؟

نطق الآبق:

-هل نعيش معا في هذا البعد؟ في هذا الزمن أيضا؟

أجابه الأحدهم بنعم.

أومأ الآبق وغمغم:

-ربما لهذا هرب انعكاسي.

رفع صوته بعدها:

-أنت نذير؟ أليس كذلك؟ أنت من أرسل الرسالة؟

أجاب نذير:

-أنا نذير، وأنت...، أنت بالفعل تعرف من أنت.

قال ذلك ثم اختفى بين الحشود تاركا الآبق يفكر، هل كان مخطئا بشأن هذا الطريق الذي اختاره؟ هو فقط لم يكن يريد أن يكون موجودا غير موجود.

الصوت الذي يجيبني

استفاق الآبق من نومه، كان الزمن هادئا، شعر بشيء غريب، لم تكن أفكاره سليمة كما اعتادت، هناك عائق ما داخل رأسه يصر على أن يقاطع أفكاره، صوت يهمس داخل عقله، ليس كحدس، بل ككيان مستقل، إنه شخص آخر في الداخل، يتحدث بوضوح، يكاد يكون أكثر وضوحا من أفكاره الخاصة، كانت الكلمات تتسرب من مكان ما، بعيدة وقريبة في آن واحد.

إنها جزء منه لكنه ليس هو، هو لا يتوقف عن التفكير.

لحظات حاول فيها تجاهل الصوت، ربما هو مجرد تأثير جانبي لأحلامه التي يتحرر فيها عقله ويكون جزء حيا بذاته، عاد الصوت مرة أخرى، عاد أقوى هذه المرة، بل صار يناقشه في أمور لم يستطع تجاهلها، كان يطرح عليه أسئلة ينتظر إجابتها، وإلا كان يصرخ وسبب ألما فضيعا:

-أنا أنت، لكنني جزء منك، أنا أكثر منك، تملك أنت الحق في التفكير ولكن فقط أنا من يمنحك المسار لتفكر.

يصرخ الآبق:

-هل أنت أنا حقا أم مجرد غريب؟ هل أنت جزء مريض أم جزء سام؟

يرد الصوت:

-أنت أنا، أنا شيء آخر، شيء يفوق حدسا أبله، ربما أكون تجربة روحية، إدراكا متقدما، أو ربما ببساطة، تكون أنت مجرد شخص مريض بالفصام.

يخرس لآبق الصوت، يتساءل

-إن كان العقل ينقسم إلى كيانات مختلفة فمن الذي يحدد من هي الذات الحقيقية.

يتكلم الصوت.

ينصت الآبق هذه المرة.

الزمن والقدر

الأمس الذي لم ينته

استيقظ الآبق على صوت المنبه، تماما كما فعل في الأمس القريب وحتى البعيد، نفس النغمة الرتيبة، نفس الضوء الخافت تسلل من النافذة لينعكس على المرآة المقابلة، نفس الشعور بالتعب، لم يكن مجرد إرهاق، بل عبء ينطلق مع شروق الشمس حين يجبر على التفاعل مع العالم، دائما هناك أمر ما خاطئ.

حين خرج إلى الشارع، كان كل شيء مألوفا بشكل غير مريح، نفس الأشخاص يعبرون الطريق، نفس الرجل العجوز يسعل بينما يسند ظهره إلى الجدار، نفس الصياح المنطلق من المتجر القريب، نفس المشهد، الأمور بين الأمس واليوم متطابقة إلى حد مرعب.

حاول تجاهل الأمر، لكن مع مرور الساعات، أدرك الحقيقة الباردة: هذا اليوم ليس جديدا، إنه الأمس، بكل لحظاته، وبكل تفاصيله. الناس يعيدون ما فعلوه دون وعي، كأنهم سجناء مشهد مسرحي يعاد مرارا. لكن، وحده كان يدرك ذلك، الجميع كان محاصرا في الحلقة الزمنية، لكن وحده كان يدرك أنه محاصر، محاصر في أمس لا ينتهي.

حاول كسر التكرار، تصرف بشكل مختلف، لكنه في كل مرة يستيقظ ليجد نفسه في الأمس، لم يكن هناك مستقبل، فقط تكرار لا نهائي للماضي، فكر...

-هل الجميع سجناء الروتين دون أن يدركوا؟ كيف يمكن كسر الحلقة؟

أو ربما الحل فقط هو القبول، لكنه لا يرى ذلك، الأمس يتكرر بلا نهاية، ستفقد الأحداث معناها حقا، ربما هو فقط مخطئ، ربما الزمن ليس خطيا كما يعتقد، ربما هو فقط دائري.

ساعة الرمل المعكوسة

خطا خطوة واحدة للأمام فتراجع كل شيء من حوله.

كانت الغرفة التي يقف فيها تكتسي بظلال الماضي، الجدران تنحسر إلى حالتها السابقة، الكتب تعود إلى رفوفها كما لم تفتح قط، الهواء نفسه بدا كأنه يسحب أنفاسه إلى الخلف، تجمد في مكانه، نظر إلى قدميه، ثم إلى الباب الذي لم يكن هناك.

مد يده إلى ساعة الحائط، كانت عقاربها تدور عكس الاتجاه، نظر إلى يده، أصابعه تنكمش وجلده يعود أكثر نضارة، وكأنه يعيد عقودا من الزمن، تراجع بخوف فشعر باندفاع الزمن إلى الأمام مجددا، كل شيء يعود إلى مكانه، عادت الساعة إلى دورانها الطبيعي واستقر جسده في اللحظة الراهنة.

حاول أن يجرب مرة أخرى، تقدم خطوة، فإذا بكل شيء يعود إلى الوراء... لكنه الآن يعرف الحقيقة: الزمن هنا لا يتقدم، بل يتراجع مع كل حركة.

حاول أن يفكر، ربما يمكنه استغلال هذا لمحو شيء من الماضي؟ لكن إن كان كل شيء يعود إلى الوراء مع حركته، فربما أنه سيختفي تماما إذا واصل التقدم؟

ربما الحل الوحيد للبقاء هو الثبات في مكانه إلى الأبد...

المكان الذي لا ينتمي للوقت

حين عبر الآبق العتبة، شعر بشيء غريب، كأن الهواء نفسه متجمدا، تبدو الغرفة أمامه بصورة ثابتة، كل شيء فيها ساكن تماما، الشمعة المشتعلة لم تذب، اللهب أيضا لم يكن يتراقص، الساعة المعلقة على الحائط دون عقارب، والغبار عالق في مكانه دون أن يسقط.

حين مد يده ولمس الطاولة لم يكن هناك إحساس بالخشب البارد، كانت كظل لشيء كان حيا في زمن آخر، حين التفت حوله، لم يكن هناك شيء يتحرك، حتى الستائر القريبة من النافذة المفتوحة لم تكن تهتز، حتى حين وضع يده على قلبه لم تكن هناك دقات.

جرب الصراخ، لكن الصوت لم يكن لينتشر في الهواء الساكن، هل هو محبوس هنا؟ حيث لا يتقدم الزمن ولا يتراجع، بل متوقف تماما... أم هو فقط تخطى الزمن إلى فراغ خارج الوجود.

فكر

-كيف يمكنه العودة إلى العالم الذي ينبض بالحياة؟

رؤية من المستقبل

في لحظة غريبة بين النوم واليقظة، انزلقت عينا الآبق إلى مشهد لم يكن من ذاكرته، بل من شيء لم يحدث بعد، رأى نفسه واقفا على سطح مبنى عال، المطر يهطل بغزارة، ثيابه ممزقة بينما يقبض على شيء لم يعرف كنهه بالضبط.

في خلفية المشهد، كانت هناك أضواء تتوهج وصوت صافرات إنذار بعيدة تملأ الأفق، كان بإمكانه رؤية نفسه يحدق للأسفل بملامح جامدة، كان قرارا مصيريا يوشك أن يتخذ.

حاول أن يلتقط تفاصيل أكثر، أن يفهم ما الذي يحدث، لكنه فجأة عاد إلى واقعه، كان في غرفته، كل شيء كما هو، لكن المشهد بقي راسخا في ذهنه كحقيقة ثابتة.

كان يشعر كأن جزءا منه قد سحب قسرا إلى نقطة من الزمن لم يصلها بعد، ترى هل كان القدر الذي رآه قدرا لا مفر منه؟ أم أنه مجرد خيار من خيارات لا حصر لها؟ ماذا لو تمكن من تغييره؟ لكن ربما يسير كل شيء إلى تلك اللحظة رغما عنه؟ أو ربما لم يكن وحده من حضر تلك الرؤية، حينها سيكون تغييرها مسؤولية آخرين... لكن ماذا لو رأوها من زاوية مختلفة؟

الساعة التي لا تتوقف

كانت الساعة في يد الآبق أشبه بنبض إضافي، إيقاع لا يخضع لقوانين الزمن المعتادة، كان الرقم الذي يظهر على وجهها يتغير بلا منطق، تبدو الساعة كأنها تسخر من فكرة الثبات، حين نظر إليها لأول مرة، قرأ 12567، بعد دقيقة أصبح 12459، ثم 13001.

في البداية اعتقد الآبق أنها معطوبة، مجرد قطعة أثرية فاسدة، لكنه سرعان ما أدرك أن الأرقام لم تكن عشوائية تماما. كلما شعر بالخوف، تقلص العدد. كلما هدأت أنفاسه، تمدد. وكأن مصيره مرهون بواقع أفكاره، بانقباض صدره، بانزلاقه المتكرر بين القلق والطمأنينة.

فكر قليلا، تساءل:

-هل أنا من يستهلك الوقت أم أن الوقت هو الذي يستهلكني؟

كان السؤال يشبه دائرة مغلقة، كالعقرب الذي يلتف حول نفسه.

حاول الآبق أن يفهم، أكان هذا الزمن المتبقي له؟ أتقاس الأيام باللحظات التي يعيشها أم بتلك التي يخسرها؟ أم أن الحياة ليست أكثر من معادلة غير مكتملة، أرقامها تخضع لحسابات لا يفهمها الإنسان؟

تساءل مرة أخرى:

-إن كنت أنا من يستهلك الوقت، فلماذا أشعر أن الوقت هو من يستهلكني؟

السؤال لم يكن جديدا لكنه الآن أشد قسوة.

بدأ يراقب نفسه، يتلاعب بمصيره كعالم يختبر فرضياته، قال وهو يفعل ذلك:

-الخوف يلتهمني أسرع من الوقت نفسه.

كلما هدأ تمدد الرقم، كأن الاطمئنان يطيل عمره، كلما ارتبك، تقلص، وكأن القلق يحرق أيامه مقدما.

اكتشف أن الزمن لم يكن مستقلا عنه، بل كان هو الزمن، لم يعد مجرد مشاهد لما يحدث، صار صانعا لزمنه الخاص، متحكما ولو وهميا في ما تبقى من أيامه.

في الليلة العاشرة، استيقظ مفزوعا، حلم بشيء لم يستطع تذكره، لكن الإحساس الذي تركه الحلم في صدره كان واضحا كالموت ذاته. التقط الساعة، بحث عن الرقم، فوجده قد وصل إلى 0.

أغمض عينيه، فتحها بعد لحظات :

-أأنا الذي أنتهي أم أن العالم هو الذي توقف عن احتسابي؟

العالم الذي يتغيربناء على قراراتي

استيقظ الآبق ذات صباح ليجد أن غرفته لم تعد كما كانت، الستائر التي كان قد تركها مفتوحة بالأمس صارت مغلقة، والمرآة التي اعتادت أن تكون قريبة من النافذة أضحت معلقة في الزاوية الأخرى، وكأن شخصا ما أعاد ترتيب كل شيء أثناء نومه، لكنه كان وحده كما كان دائما.

نهض ببطء، مشى إلى المطبخ، فوجد كوب قهوته ممتلئا رغم أنه لم يصب شيئا بعد، لم يعدها حتى. لا يزال البخار يتصاعد من الكأس كما لو أنها سكبت للتو. حدق في السائل الداكن، ثم رفع عينيه إلى النافذة. الشارع نفسه لم يعد كما يتذكره، اللوحات على المحلات تغيرت، الألوان تبدلت والمارة ارتدوا ملابس لم تكن مألوفة، كأنما جاؤوا من زمن آخر أو من واقع مواز لم يمر به من قبل، أو ربما فقط حصلوا عليها من خزانة الزمن، هذا إذا كانت موجودة فعلا؟

شيء ما لم يكن على ما يرام.

عاد فجلس على الأريكة يراقب تفاصيل منزله، حاول تذكر كيف كان كل شيء بالأمس، لكن الذاكرة خانته.

هل كان هذا الكرسي دائما بهذا اللون؟

هل كانت الجدران دائما خالية من الشقوق؟

بدأ يتساءل إن كان فقد إحساسه بالواقع، أم أن الواقع نفسه استبعده فصار يفقد إحساسا به؟

في اليوم التالي، قرر ألا يغادر سريره. أراد اختبار شيء ما. ظل مستلقيا، لا يتحرك، لا يتخذ أي قرار، وكأن وجوده قد انكمش إلى نقطة غير مرئية في نسيج الزمن. لكنه حين فتح عينيه، وجد أن الجدران تغيرت ألوانها، والساعة على الحائط كانت تشير إلى وقت غريب، كان الزمن يتحرك بطريقة لم يفهمها.

-هل أنا الذي تغيرت؟ أم أن العالم يعيد كتابة نفسه من حولي؟

لم يستغرق الأمر طويلا حتى فهم.

-العالم يتغير... لكن بناء على ماذا؟

كل مرة يقف عند مفترق طرق، كل مرة يوشك أن يتخذ قرارا لكنه يتردد، كان الواقع دائما ما يسبقه بخطوة، يختار له احتمالا لم يصل إليه بعد.

حين فكر في الاستقالة من عمله، وجد نفسه بالفعل جالسا في منزل لم يعرفه من قبل، في الصندوق البريدي عثر على رسائل تذكره بأنه قد استقال منذ أسبوع.

حين خطر بباله فكرة الاتصال بصديق قديم، وجد سجل مكالماته يحتوي على محادثة كاملة لم يتذكر أنه أجراها. كان الواقع يتشكل وفقا لاحتمالاته، لكنه لم يعد بعد صاحب القرار الحقيقي.

في لحظة ما كان عليه أن يتساءل:

-إن كنت لا أتحكم بقراراتي، فهل مازلت أتحكم بنفسي؟

بات الآبق يخشى التفكير في أي شيء، لأن كل احتمال كان يتحول إلى حقيقة بمجرد أن يعبر ذهنه، لم يعد العالم شيئا يراه ويتفاعل معه. بل صار مرآة مشوشة لأفكاره، تنعكس عليها قرارات لم يتخذها بعد، لكنها تتحقق قبله.

في اليوم التالي، كان قد قرر التوقف عن التفكير، فماذا لو فكر بأن منزله قد اختفى، أو ماذا لو تخيل نفسه ميتا...

مهلا... اختفى منزل الآبق بالفعل.

العزلة والاغتراب

المدينة الفارغة

كان إحساسا ثقيلا، كأن الفراغ نفسه يضغط على صدره، فتح عينيه ببطء، تطلع إلى السقف الذي بدا أوسع مما يذكر، كأن الجدران قد تراجعت قليلا في غيابه. جلس على حافة السرير، حرك قدميه على الأرضية الباردة، ثم انتبه... لا أصوات.

لا سيارات، ولا صرخات حادة من الجيران البلهاء، لا تنبح الكلاب أيضا، لا شيء.

نهض بتردد وخوف، فتح النافذة، غمره ضوء الشمس ببرود غريب، الشارع أمامه كان فارغا، لا سيارات تمر، لا أبواب تصفع، ولا أطفال حمقى، وحدها الأوراق المتساقطة كانت تلهو بفعل الريح.

ارتدى ملابسه بسرعة، خرج من شقته ونزل الدرج بخطوات ثقيلة، وقف عند المدخل، نظر يمينا ويسارا، المدينة كانت هناك... لكنها لم تكن هناك حقا. اللافتات لا تزال مضاءة، إشارة المرور على رأس الشارع تتغير بألوانها المعتادة، أبواب الدكاكين مفتوحة على مصراعيها، لكن لا أحد.

لم يكن هذا هدوء، بل اختفاء.

مشى الآبق بين الأزقة ونادى بأعلى صوته:

-هل من أحد هنا؟

عبر الشارع الرئيسي، دخل إلى مقهى يعرفه جيدا. الكراسي مقلوبة فوق الطاولات، آلة القهوة لا تزال تعمل، لكن النادل لم يكن هناك. نصف كوب ممتلئ

بقي على الطاولة الرئيسية، لا تزال تنبعث منه أبخرة ساخنة، يبدو أن صاحبه اختفى في وقت قريب.

فتح هاتفه، لكنه لم يجد أي إشارة، لا مكالمات، لا رسائل. كأن المدينة قد عزلت عن العالم وعزل هو معها، هي وحيدة وهو وحيد فيها.

جرب الدخول إلى البيوت، وجدها مفتوحة، الطعام لا يزال ساخنا على الموقد، ملابس مبتلة تركت لتجف، لكنه لم يجد أحدا، لم تكن هناك علامات عن الكارثة، لم يكن هناك شيء غير طبيعي سوى الغياب نفسه.

توقفت أنفاسه للحظة:

-أأنا من استيقظ في عالم آخر؟ أم أن العالم هو من رحل عني؟

مرت ساعات وهو يسير، يبحث، ينادي لكن كل ما وجده هو كان المدن المهجورة التي لا تزال تنبض بالحياة، حياة دون أحياء، كأنها تنتظر أن يعاد ملؤها، أن يعاد تشغيلها من جديد.

في تلك الليلة، حين جلس فوق سطح مبنى يراقب الأضواء التي لم تنطفئ بعد، خطر للآبق سؤال لم يستطع دفعه بعيدا:

-هل كنت وحيدا دائما، لكنني لم ألاحظ ذلك إلا الآن؟

اللغة المنسية

استيقظ الآبق كالمعتاد، لم يكن هناك ما يوحي بأن هذا اليوم سيكون مختلفا، ارتدى ملابسه، تناول فطوره سريعا وخرج إلى الشارع.

كان الهواء باردا قليلا بينما تتسل الشمس بخجل بين المباني، كل شيء بدا طبيعيا... حتى تحدث إليه أول شخص:

-___________.

ابتسم الآبق بتردد، توقف للحظة وظن أنه لم يسمع جيدا:

-ماذا قلت؟

لكن الرد جاء أكثر غرابة، كلمات مبهمة وأصوات لا تنتمي لأي لغة يعرفها. حاول التركيز على ملامح الشخص أمامه، لكن لا شيء غير طبيعي يحدث.

-ترى هل أنا من أخطأ السمع؟

هز رأسه ثم تابع سيره، لكنه بدأ يلاحظ شيئا مخيفا، كل من حوله يصدرون هذه الأصوات الغريبة ، الحروف المبعثرة والكلمات بلا معنى. الأسوأ من ذلك، كل اللافتات، الإعلانات وحتى الصحف، كلها أصبحت مكتوبة بلغة غامضة، كأن العالم فجأة قرر أن يتحدث بشفرة لا يفهمها.

حاول التحدث، لكن كلماته لم تكن تصل، لا أحد يفهم، لكن لا أحد يبدو مستغربا من لغته أيضا، كأنه أصبح نكرة، كأنه لم ينتمي إلى هذا المكان، إلى هذا الوجود.

وقف في منتصف الشارع، صرخ إن كان يفهمه أحد؟ لم تحمل العيون حوله سوى نظرات الاستغراب، لغته البليغة باتت مجرد ضجيج غير مفهوم.

حاول قراءة أفكاره بصمت، أجل هو يتحدث كما كان يتحدث دائما.

لكنه لم يعد متأكدا بعد الآن،

-هل أنا الذي فقدت اللغة، أم أن العالم هو من تخلى عنها؟

في تلك اللحظة أدرك حقيقة مرعبة:

أنك إن لم تستطع التواصل مع العالم، فأنت لم تعد جزء منه.

وبات يخشى هذه الحقيقة التي لا يمكن تغييرها.

كل الوجوه متشابهة

في يوم عادي تماما استيقظ الآبق من نومه دون أن يدرك أن عالمه على وشك أن يتحول إلى كابوس حي، نهض من سريره، وبعد دقائق كان يغادر الشارع، لكنه شعر بشيء غريب منذ الوهلة الأولى التي لمح فيها البائع عند ناصية الشارع. كان مألوفا... مألوفا حد الرعب، نفس الملامح، نفس العينين، نفس الابتسامة التي رآها منذ قليل على وجه بواب العمارة،لكنه أقنع نفسه بأنها مجرد صدفة، ربما يشبهه قليلا.

لكن، عندما وصل إلى محطة القطار، بدأ القلق يتسلل إلى قلبه، كان الجميع يشبه البائع والبواب، يشبهونهم حد الرعب، العجوز الجالس على المقعد، المرأة التي تجر طفلها، طفلها نفسه، كان الجميع نسخا متطابقة.

شعر بالدوار، التفت بسرعة إلى نافذة زجاجية ليطمئن بأن وجهه لم يتغير، لكنه تذكر أن لا انعكاس لوجهه، ترى هل فقد عقله؟

حاول أن يتجاهل الأمر، لكنه لم يستطع.

في العمل، كان زملاؤه يحملون نفس الوجه، حتى مديره الذي كان يصرخ عليه بسبب تأخره لم يكن مختلفا. خرج مهرولا إلى المنزل، كان قد أدرك حقيقة مرعبة، لم يعد هناك أحد في العالم غيره، لكنه لم يكن وحيدا.

بدأ عقله ينهار تحت وطأة الأسئلة التي لم يكن مستعدا لمواجهتها. كان الهروب مستحيلا، كل مكان كان يذهب إليه لم يعد سوى امتداد لهذا الكابوس العبثي.

حينها، بدأ سيل الأسئلة يضرب وعيه بعنف:

-هل أنا الوحيد الحقيقي هنا؟ أم أني مجرد نسخة أخرى، ضائعة وسط نسخ بلا نهاية؟

-هل أملك ملامح إذا لم يكن هناك من يقارنها بغيرها؟

-إن لم يكن هناك أحد ليشهد على وجودي فهل أنا موجود حقا؟

-هل أنا هنا لأحكم هذا العالم أم لأسجن فيه؟

كل ما تعمق في التفكير، ازداد إحساسه بأنه يفقد ذاته؟ كان دائما يعتقد أن الوجود يحتاج إلى اختلاف، إلى التفاعل بين الأضداد، لكن الآن.. لم يكن هناك أي "آخر". لم يكن هناك إلا هو ونسخ تتكاثر حوله كظل لا نهاية له.

في النهاية لم يعد متأكدا مما يخشاه أكثر: أن لا يجد مفرا من هذا العالم... أم أن يكتشف أنه لم يكن هناك مخرج منذ البداية.

الحياة التي تشاهد

حين استيقظ الآبق ذات صباح، شعر بشيء غريب، وكأن هناك أعينا تراقبه. لم يكن هذا الإحساس جديدا تماما، لكنه كان أكثر كثافة هذه المرة، تجاهل الأمر في البداية، لكنه لاحظ أن كل شيء حوله بدا... مصطنعا.

عندما فتح نافذته، لم يكن هناك هواء حقيقي، فقط مشهد ثابت للمدينة، كأنه صورة مرسومة. الأشخاص في الشارع يتحركون بإيقاع مثالي، لا أخطاء، لا تردد، وكأنهم ممثلون في مسرحية متقنة، حين خرج، شعر بأن عيونا تراقبه، لم تكن عيون الممثلين أمامه، بل كأن هناك جمهورا غير مرئي يراقب كل خطوة يخطوها، بدأت الأسئلة تتدفق في عقله بجنون:

-هل كنت دائما أعيش في عرض مسرحي؟

-إذا كان كل شيء مخططا، فهل لي أي إرادة حقيقية؟ أم أنني مجرد دمية تتحرك وفق نص لم أكتبه؟

-من الذي يراقبني؟ ولم أنا بالذات؟

-إن كنت مشاهدا، فهل كانوا يراقبون كل لحظاتي الخاصة؟

-هل حياتي بأكملها كانت مجرد تسلية لهم؟

-هل يمكنني التمرد؟

-ماذا سيحدث لو توقفت عن التصرف كما هو متوقع؟ هل ستنهار هذه المسرحية؟ أم أنهم سيتدخلون لإعادتي إلى النص؟

أراد الصراخ، أراد الهرب، لكنه لم يكن يعرف كيف. كل نقطة يخطوها كانت وكأنها تبدو متوقعة، وكأن السيناريو كان يعرف أنه سيحاول الهرب في هذه اللحظة تحديدا.

رفع رأسه إلى السماء، لم يكن هناك فضاء، لا نجوم، لا شمس، فقط ضوء ساطع، يشبه ضوء الكاميرات.

ارتعش جسده للحظة، لم يكن يعلم إن كان عليه أن يخاف، أن يغضب، أم أن يضحك على هذا الكشف العبثي.

للحظة ما فكر:

-إن كان هناك كاتب لهذا السيناريو، فهل يمكنني مقابلته؟

-هل يمكنني الهروب من القصة والعبور إلى حيث يوجد هو؟

أنا الغريب الوحيد

في البداية، لم يكن الآبق متأكدا، ظن أن الأمر مجرد شعور طفيف بالوحدة، إحساس عابر يمكن لأي شخص أن يمر به. لكن كلما مضى الوقت، بدأ يوقن أن الأمر ليس نفسيا، بل هو حقيقة مادية.

كان يمشي بين الآخرين، يراقبهم يتحدثون، يضحكون، يتجادلون، لكن لا أحد منهم نظر إليه، لم يكن ذلك التجاهل العادي الذي قد يتعرض له المرء في مدينة مزدحمة، بل كان من نوع آخر، أشبه بعدم الوجود.

حاول أن يتحدث، أن يصرخ، أن يلمس أحدهم، لكن لم يكن هناك رد فعل، لا التفاتة، لا نظرة فضول، لا ارتباك حتى... كأنه لم يكن.

جعله ذلك يفكر:

-هل أنا شبح؟ إن كنت كذلك فلمن تعود ذكرياتي؟ هل كنت يوما إنسانا؟ أو ربما... هل أنا ميت؟ ولكن إذا كنت قد مت، فأين كان الموت؟ كيف حدث؟ ولماذا لم أشعر به؟

بدأ الآبق يشعر بالخوف. لا، ليس الخوف المعتاد، بل خوف أشبه بالغرق في فراغ بلا قاع. كان كأن العالم قد قرر أن يمحوه، لكن ليس دفعة واحدة، بل بتجريده من كل أثر، من كل تفاعل، من كل اعتراف بوجوده.

-ماذا لو لم يكن يراني أحد؟ هل سأضل موجودا؟ أم أن الإدراك وحده شرط الوجود؟

مهلا، يرتبط الإدراك بالإرادة...

-إذا لم أكن مرئيا، فهل أملك الإرادة؟ هل أستطيع التأثير في شيء؟ أم أنني مجرد ظل دون أثر؟

كان تأثير هذا الإدراك على الآبق أشد من الموت نفسه، فالموت على الأقل يحمل يقينا، أما ما يعيشه فهو فقدان الوجود دون اختفاء، عزلة بلا جدران، هو باختصار، منفي بلا منفى.

حاول أن يختبر واقعه، دفع كرسيا، لكن الكرسي لم يتحرك. ركل حجرا، لكن الحجر بقي في مكانه. صرخ، حتى تورمت حنجرته، ولم يخرج أي صوت. كأن قوانين الحياة نفسها لم تعد تعترف بوجوده.

حين ظن ذلك تساءل:

-هل هو من يحرك جسده؟ أم أن جسده يتحرك بدونه؟

مع الوقت بدأ يفقد إحساسه بالزمن، لم يعد يذكر متى استيقظ، وإن كان قد نام أصلا. كل شيء كان ثابتا، فقط استمرار أبدي لفكرة أنه لم يعد جزءا من شيء.

أحاله هذا إلى سؤال كبير:

-هل هو يفكر، أم أن الأفكار نمت له؟

لكنه لم يستسلم تماما، بل فكر:

-إن كان الوجود يعتمد على الإدراك فربما يكفي أن أدرك نفسي.

أخذ يكرر اسمه في ذهنه، يتذكر ماضيه، يبحث عن شيء واحد يمكن أن يثبت أنه كان هنا.

لكن الذاكرة بدت وكأنها تتلاشى معه، تفاصيل حياته السابقة أصبحت ضبابية كأنها تخص شخصا آخر.

كان سؤاله مرعبا:

-هل كان يوما أحدا؟ أم أنه مجرد شخص لم يوجد قط؟ أو ربما هو فقط ظل آبق بلا صاحب .

اليوم الذي أصبح فيه الجميع أنا

في البداية لم يلاحظ الآبق التغيير. كان يمشي في الشارع غارقا في أفكاره الوجودية، حين استوقفه إحساس غريب، إحساس أنه مر بنفسه قبل لحظات. توقف وحدق بالرجل الذي يجانبه الطريق، شعر برعشة باردة تسري في كامل جسده. كان الوجه مألوفا... مألوفا حد الرعب.

تابع سيره بحذر، شيء ما كان خطأ، نظرات الناس بدت مميزة، لا بل كنت مخيفة، نسخة واحدة متكررة. توقف فجأة أمام نافذة متجر، لم يرى انعكاسه لكنه رأى انعكاس الشارع خلفه، وهنا، تسارعت أنفاسه. كل العابرين كانوا يحملون وجهه.

ركض بجنون، أوقف أول شخص قابله، بعنف صرخ:

-من أنت؟

الصوت الذي لم يكن غريبا، كان صوته نفسه، الرجل أمامه ابتسم بذات طريقته، بذات عينيه، بذات انحناءة حاجبيه. لم يكن ذلك شخصا آخر، بل كان هو.

استدار يهرب، لكن الشارع كله كان ممتلئا به. رجال، نساء، أطفال... جميعهم يحملون ملامحه، يتحدثون بصوته، يضحكون ضحكته، حتى أدق حركاتهم كانت استنساخا له.

لم تكن هناك العديد من الاحتمالات. هل هذا حلم؟ هل أصيب بالجنون؟ هل انتهى العالم وبقي هو فقط؟ أم أن العالم وبكل بساطة قد أصبح هو؟

حاول أن يتذكر كيف بدأ هذا كله، لكنه لم يستطع. هل كان دائما هكذا ولم يلاحظ؟ أم هل ابتلعت شخصيته الآخرين وأصبح هو كل شيء؟

مع مرور الوقت، بدأ يشعر بالاختناق. لم يكن هناك اختلاف، لا أصوات جديدة، لا أفكار غريبة، لا شيء يكسر هذا التكرار القاتل، حتى عندما صرخ، كان صدى صوته يتكرر من مئات الحناجر حوله بنفس النبرة ونفس الكلمات. وهنا بدأ الشك الأكبر يتسلل إلى ذهنه:

-إذا كانوا كلهم أنا... فمن أنا حقا؟

الموت والخلود

الميت الذي لم يدفن

استيقظ الآبق على صوت ترتيل بعيد، صوت خافت يتردد في أذنيه كأنما عبر من خلف جدار سميك. كان بصره ضبابيا لكنه سرعان ما استعاد تركيزه. وقف في منتصف شارع مهجور حيث انتشرت رائحة البخور والمطر القديم. لم يكن يعرف كيف وصل إلى هنا. لكنه شعر بأن هناك شيئا خاطئا... شيئا مخيفا ينتظره.

تتبع الصوت حتى وصل إلى ساحة صغيرة، وهناك رأى نعشا موضوعا فوقف محمل وحشد من الناس يحيط به بوجوه حزينة، اقترب بخطى مترددة، ناظرا إلى النعش بذهول. كان اسمه يذكر، كان المشيعون يترحمون عليه، كانوا يودعونه... لكنه كان هنا، واقفا، حيا...

-ماذا تفعلون؟ أنا هنا.. لست ميتا..

لكن أحدا لم يلتفت إليه، صوته تردد كهمس ضعيف لا يكاد يسمع، وكأنه غير موجود.

بدأ جسده يرتجف، اقترب من رجل يعرفه، صديق قديم، وضع يده على كتفه... لكن الصديق لم يتفاعل، لم يرتعش، لم ينظر إليه، لم يبد حتى وكأنه يشعر به.

-كيف لا تراني؟ ألا تسمعني؟

كأن العالم صنع بينهما شاشة زجاجية سميكة، يقف هو خلفها، يصرخ دون أن يصل صوته.

اقترب أكثر، نظر داخل النعش، في تلك اللحظة، انفجرت الحقيقة أمام عينيه، كان هو... جثته كانت هناك، وجهه شاحب، عيناه مغمضتان، مغطى بكفن أبيض، لم يكن يشبه جثة، بل شخصا نائما في سلام مخيف.

تراجع مرتجفا، لكنه لم يستطع الهرب.

-هل أنا ميت حقا؟ أم أن العالم دفنني بينما لا أزال حيا؟

أحس بالبرد يتسلل إلى أوصاله، راقب المشيعين وهم يحملون النعش ويبتعدون، داخله يتصارع يقين بأنه لم يعد جزءا من العالم وحقيقة أنه أيضا... لم يرحل عنها تماما.

وهنا تسللت إلى عقله أسوء فكرة على الإطلاق:

-إذا لم أمت، لكن لا أحد يستطيع رؤيتي... فماذا أصبحت؟

بعد أن اختفى موكب الجنازة خلف الضباب الكثيف، وقف الآبق وحيدا وسط الفراغ، كان موجودا بينما لم يعد ملموسا، صوته كان يتردد بينما لا يسمع. شيء ما في هذا الوجود رفضه، لفظه، الحياة نفسها قررت أن تتجاهله.

عقله بدأ يطرح أسئلة لم يفكر فيها من قبل، أسئلة لم تكن لتطرأ إلا لمن علق بين الحياتين.

-هل كنت حيا من قبل؟ أم أني كنت ميتا دائما دون أن أدرك؟

-إذا كنت قد مت حقا، فلماذا لا أشعر بالراحة والفناء؟

-نحن أحياء لأننا نشعر، أم لأن الآخرين يشعرون بنا؟

-متى يتحقق الموت؟ عند توقف الجسد، أم عند نسيان الآخرين لنا؟

الآن، كان هناك هذا الفراغ القاتل، هذا الشعور بأنه شيء زائد عن الحاجة، ظل بلا أمل، اسم بلا صاحب، هل صار مجرد ذكرى؟ وهل الذكرى كائن حي أم وهم؟

عادت ذاكرته إلى الأيام التي كان يعبر فيها الشارع دون أن ينظر إليه أحد، إلى ما كان يتفوه به.. لكن صوته كان أضعف من ضجيج العالم، إلى المشاعر التي كتمها حتى نسي كيف يعبر عنها.

-ألم أكن غير مرئي دائما؟ هل كنت ميتا منذ البداية، لكنني لم أكن أعرف؟

حياة بلا نهاية

ظن الآبق أن الأمر مجرد مصادفة. حادث السيارة الذي مزق جسده لم يترك عليه سوى خدوش طفيفة، والسم الذي ابتلعه بدم بارد لم يسبب سوى شعور عابر بالغثيان، وحتى سقوطه من أعلى المبنى لم يكن سوى لحظة فراغ انتهت به واقفا على قدميه دون كسر واحد.

كان الأمر كابوسا يتجاوز الفهم البشري. حاول مرارا وتكرارا، لكن جسده يرفض الفناء. مرت الأيام، ثم السنوات، ثم القرون... الجميع من حوله يمضي، يشيخ، يختفي، إلا هو،عالق في دائرة من الزمن لا نهاية لها.

أثناء هذه الحياة الطويلة لاحقته أسئلة عديدة:

-إذا كان الموت هو النهاية الطبيعية لكل حي، فماذا أكون أنا؟

-هل للحياة معنى إذا لم تكن لها نهاية؟

سابقا، خاف من الموت، والآن يتوسله، كل لحظة تمر لم تعد نعمة، بل حملا ثقيلا يزداد مع كل يوم جديد. رأى العصور تتغير، والأمم تنهض وتستيقظ، واللغات تندثر، والأصدقاء يتحللون إلى تراب، بينما هو يبقى... دائما يبقى.

مع مرور الزمن، بدأت ذاكرته تثقل، كأنها مكتبة ترفض الامتلاء. لم يعد يذكر أسماء من أحبهم، لم يعد يتذكر وجه أمه أو ضحكة رفيقه الأول، لم تعد المشاعر سوى أصداء باهتة في سلسلة من التكرارات المقيتة.

تساءل بذعر:

-هل يمكن للإنسان أن يتحول إلى ظل فارغ إن عاش طويلا بما يكفي؟

في يوم ما، وقف أمام قبر شخص لم يعرفه، وقرأ الاسم المحفور عليه، شعر بالغيرة، ذلك الشخص قد فاز... قد انتهى... قد وجد الراحة التي لم يستطع هو الوصول إليها.

مرر يده على شاهد القبر بأسى، بينما يفعل ذلك، فكر الآبق:

-هل الوجود بلا نهاية أقسى من الفناء؟

في البداية، ظن بأنه محظوظ، فمن لا يتمنى حياة بلا نهاية؟ لكنه سرعان ما أدرك أن الخلود مجرد غلاف براق للعنة دائمة، رأى الجميع يرحلون، أحباؤه، أعداؤه، الغرباء الذين لم يكترث بهم يوما... كلهم ذهبوا ولم يبق سوى هو، شاهدا على زوال كل شيء.

كلما تقدمت العصور، شعر وكأن الزمن نفسه قد فقد معناه. لم يعد للذكريات وزن، إذا لم تعد هناك نهاية تهدده بفقدانها. بات يشاهد الناس وهم يحاربون الزمن، يخافونه، يهربون منه، يلهثون وراء لحظات يريدون تخليدها... بينما هو... هو لا يملك ذلك الترف. بدأ يتساءل:

-هل قيمة اللحظة تأتي من كونها مؤقتة؟

-هل الشعور بالضعف أمام الزمن هو ما يجعلنا بشرا؟

-إن لم أعد أخاف الغد؟ فهل مازال لي غد أصلا؟

في أحد الأيام وجد الآبق نفسه يتحدث إلى حجر قديم، أقدم حتى من أقدم ذكرياته. أدرك أنه لم يعد بحاجة إلى البشر، فالبشر مؤقتون... أما هو... هو ينتمي فقط لما هو خالد. صار يحن إلى الحجارة، إلى الجبال، إلى الكواكب التي لا تبالي بوجوده. لذا تساءل:

-هل يمكن للإنسان أن يعيش طويلا لدرجة أن يتوقف عن كونه إنسانا؟

-هل سأنتهي أن أكون مجرد فكرة؟ كائنا بلا روح، بل رغبة، بلا هوية؟

كلما ظن أنه وجد هدفا جديدا، أدرك عبثية السعي إليه. لماذا يبني؟ لماذا يحب؟ لماذا يحلم؟ لا شيء يبقى سوى هو.

-إن كان كل شيء عابرا وأنا وحدي الباقي... فهل أنا خارج المعادلة؟

-هل يمكن أن يكون الخلود موتا من نوع آخر؟

وهكذا، بينما كان العالم يدور ويتغير، بقي الآبق عالقا في دوامة بلا نهاية، لم يعد هناك معنى للخوف، للأمل، ولا حتى الحلم. أدرك في النهاية أن الحياة لم تكن هدية، بل مجرد لعبة لها قاعدة واحدة.

لكي تعيش حقا، يجب أن تخشى النهاية حقا.

المكالمة الأخيرة

في إحدى الليالي الباردة، بينما كان الآبق جالسا في غرفته، رن الهاتف. لا رقم ظاهر، لا اسم... فقط صوت الرنين المتكرر. رفع السماعة، توقع صمتا، لكن صوتا مألوفا خاطبه، صوت شخص مألوف ميت.

كانت النبرة هادئة غير مرتبكة، كما لو أن المتحدث لم يكن يعلم أنه مات قبل سنوات.

قال الصوت:

-لدي شيء آخر يجب أن تعرفه.

لم يكن الأمر مجرد خطأ أو خدعة، فقد كان الصوت يحمل كل التفاصيل التي يعرفها الآبق عن صاحبه: طريقته في نطق الكلمات، تلك الوقفات الصغيرة التي يأخذها عندما يوشك على قول أمر مهم... كان هو بلا شك.

أغلق الآبق الهاتف فجأة، لكنه لم يشعر بأنه قطع الاتصال، كان الصوت لا يزال يتردد في عقله كأن الكلمات لم تغادره بعد، تساءل:

-إن كان الموتى لا يرحلون، فأين يذهبون؟

-هل الزمن مجرد وهم، ونحن فقط نعيش في لحظات لا تلبث تنتهي حتى تعاد؟

-إن كان الميت يستطيع العودة للحياة في مكالمة، فهل الموت والحياة مجرد حالتين متداخلتين؟

-كيف لي أن أثق بالواقع، إذا كان بإمكان من غادروا أن يعبروا حدوده متى شاؤوا؟

نظر إلى الهاتف مترددا، هل يجب أن يتصل؟

الاختيار بين الحياة والموت

استيقظ الآبق على صوت هامس يخرج من العدم، لم يكن صوتا خارجيا، بل كأنه ينبع من داخل رأسه، يترسب في أعماقه مثل حقيقة قديمة تم نسيانها قسرا.

-حان وقت القرار.

اعتدل جالسا بسرعة، عيناه تتفحصان الغرفة المعتمة، لكن لم يكن هناك أحد، ومع ذلك استمر الصوت:

-لديك خياران فقط: إما أن تموت الآن، دون معاناة وبلا ألم، تترك كل شيء خلفك وتمضي... أو تعرف متى ستموت بالتحديد، لكن لا يمكنك تغيير ذلك الموعد.

ارتجف قلب الآبق، لم يكن متأكدا إن كان يحلم، لكن إحساسا ثقيلا بالحتمية غلف كل شيء حوله.

-كيف يمكنني الوثوق بك؟ من أنت؟

-السؤال ليس من أنا، بل ماذا ستفعل؟

كانت فكرة الموت مفزعة، لكن فكرة معرفة موعده كانت أشد رعبا. هل يمكن للإنسان أن يعيش وهو يعرف تماما متى سينتهي؟

كان حائرا، فهل معنى الحياة يكمن في الجهل بوقت زوالها؟ لذا فهل عليه اختيار الموت لأن الحياة ستصير بلا معنى؟

إذا عرف موعد موته، فهل سيعيش حقا أم سيعيش في انتظار اللحظة الآتية لا محالة؟

أخذ الآبق نفسا عميقا، وأغمض عينيه:

-أنا لا أختار.

فجأة خيم الصمت، كما لو أن الكون نفسه انتظر قراره، ثم ضحك الصوت بخفوت، وقال:

-حتى اللا اختيار ... اختيار.

ثم اختفى.

بعد تلك الليلة لم يعد الآبق كما كان، لم يكن مجرد عرض غريب أو حلم غابر، بل تحول إلى لعنة، أصيب حقا بعدوى الشك في كل شيء، زالت الحقائق المطلقة، كتب على ورقة في لحظة ما هل الحياة مجرد مهلة؟ هل هي الحرية المطلقة أم هي فخ وجودي؟ هل معرفة النهاية تقتل الحياة؟ لماذا لم يكن هناك خيار ثالث؟ لم لا يملك الحق في الاستمرار دون المعرفة؟

بعد كل هذه الأفكار، لم يصل الآبق إلى إجابة واضحة، لكنه أدرك شيئا واحدا، السؤال أهم من الإجابة، ربما وجوده مبني على هذه الأسئلة، وربما لم يكن الهدف من الحياة أن تعرف قبل أن تسأل.

في تلك اللحظة لم يعد متأكدا مما اختاره حقا.

الشبح الذي يراقبني

في البداية، لم يكن الأمر سوى لحظة خاطفة. انعكاس في المرآة، ترى هل عاد انعكاس الآبق أخيرا من رحلته؟ أو ربما هو أمر آخر، فالظل يتحرك على نحو لا يتماشى مع حركته، إحساس غير مريح بأن هناك نسخة أخرى منه، تراقبه بصمت. لم يكن مجرد وهم أو خداع بصري. مع مرور الأيام، أصبح وجود الشبح أكثر وضوحا. كان يقف هناك، في الزوايا المعتمة، بلا كلام، بلا تعبير، فقط يراقب.

لم يكن الآبق خائفا لكنه فقط كان يفكر، أو ربما كان مذعورا أيضا، فقد فكر لماذا يخيفنا أن نرى أنفسنا؟ لماذا تملكني الرعب عندما رأيت نسخة مني تراقبني؟ لو كان الشبح يشبهني تماما، فلماذا لا أشعر بالراحة؟ من المفترض ألا أكون مرتعبا من نفسي؟ أم هل أنا فقط مرتعب من رؤية الشبح يمثل ذاتي الحقيقة دون تجميل أو تزييف؟

مرت الأيام، وفي إحدى الليالي، وقف الآبق أمام مرآة غرفته، وأطال النظر.

كانت الإضاءة خافتة والظلال تتحرك ببطء، للحظة تساءل:

-هل أنا الذي أنظر في المرآة، أم أنني انعكاس لمن يقف في الخارج؟

ثم، للحظة خافتة، رأى الشبح يبتسم.

ومنذ تلك الليلة لم يعد متأكدا أيهما الحقيقي.

التجربة التي لا تنسى

لم يكن ذلك شيئا يمكن تجاوزه. لم يكن حدثا عابرا ولا لحظة خاطفة تذوب في زحام الأيام، كانت تجربة، والتجارب ليست كالأحداث.

الأحداث تمضي أما التجارب فتسكن الجسد تتشبث بالعقل، تحفر نفسها في زوايا روح، وتصبح جزءا مما أنت عليه شئت أم أبيت.

لا يعرف الآبق متى بدأت، ربما كانت قد بدأت قبل أن يدرك، قبل أن يعي أنها تحدث. لكنه في تلك الليلة أدرك... بكل وضوح.

كان كل شيء عاديا أم هكذا بدا في البداية. طريق طويل، صمت ثقيل، وضوء مصابيح خافت يقتطع العتمة في وهن. كان يمشي بلا وجهة محددة، كما لو أن قدميه قد تحررت من إرادته كما لو أن هناك شيئا غير مرئي يقوده.

ثم رأى الباب.

باب لم يكن هناك قبل لحظة، لم يكن جزءا من المشهد. ظهر كأنه انبثق من الفراغ، لم يكن غريبا في شكله، بل في الإحساس الذي يبعثه، كان بابا كأي باب، لكن الآبق لم يشعر بأنه باب كأي باب.

لم يتردد في فتحه، لم يسال نفسه إن كان عليه ذلك.

وراء الباب، الداخل لم يكن بابا، بل إحساسا. كان ظلاما، لكنه لم يكن ظلاما، كان كأنما دخل في عمق شيء آخر، شيء أكبر من العالم نفسه. كانت الجدران -إن كانت هناك جدران- تتنفس، والهواء يحمل همسا خافتا، كأن الماضي والمستقبلان يتحدثان دون أن يسمحا للحاضر بالفهم.

لم يكن الآبق متأكدا مما يراه، لكنه كان هناك، أو ربما لا، الاثنان كانا هناك، نذير وهو، أجل هو، غادر نذير، بقي هو يقف أمام نفسه، لم يتحرك، شعر أن الكيان أمامه ينظر إليه مباشرة، رغم أنه لم تكن له عيون، لم يتكلم لكنه فهم أنه يخاطبه رغم أن الصوت لم يسمع.

في الداخل، لم يكن هناك ضوء، لم يكن هناك صمت، لم يكن هناك زمن.

ثم كان هناك كل شيء.

وجد نفسه خارجا يقف حيث كان، لكن شيئا قد تغير. لم يكن متأكدا مما هو، لكنه عرف أنه لن ينسى أبدا، كانت تجربة، والتجارب لا تموت.

أدرك أن السؤال لم يكن ما الذي حدث؟ بل ما الذي أصبح الآن؟

لكن الأسئلة لم تتوقف هناك.

هل كان ما رآه حقيقة أم وهما؟ وإن كان وهما فمتى يتوقف الوهم عن كونه مجرد وهم؟

هل يمكن للوعي أن يختبر أشياء لا يفهمها العقل؟ هل نحن سوى تراكم لتجاربنا؟ وإن كانت التجربة أقوى من الذاكرة فهل يمكن أن يكون ما نحن عليه الآن ليس سوى نتيجة لأشياء لا نذكرها؟

شعر الآبق أنه يتآكل من الداخل، لم يعد متأكدا، لم يعد متأكدا على الإطلاق.

المعرفة والجنون:

الحقيقة التي لا تقال

لم يكن الآبق قد اعتاد على الصمت الثقيل الذي غمره في تلك اللحظة، فقد كان الظلام أكثر من مجرد غياب للضوء. كان شيئا متسللا إلى أعماق وعيه، يدفعه للاعتراف بما كان يخشاه. هنا، داخل هذا الفراغ الملتبس بين الوجود واللاوجود، كانت الحقيقة التي لم تقل تتنفس داخل عقله.

فماذا يعني أن تعرف سرا لا يمكنك البوح به؟

هل يصبح من كمال وجودك أن تدرك شيئا يعوق قدرتك على الفهم؟

هل لا يصبح الشخص الذي يكتم الحقيقة محاصرا بين رغباته والمعرفة التي تذوب في نفسه؟

ثم، إذا كانت الحقيقة التي يحملها الآبق هي السر الأكبر، فهل تصبح الحياة بعد تلك اللحظة مجرد سلسلة من النكران؟

تساءل: هل هو فقط من يواجه هذه الحقيقة، أم أن الجميع في حياتهم يحملون أسرارا؟

إذا كانت الحقائق تحتوي هذا القدر من القوة، فهل يجب أن نعيش حياتنا محاطين بأسرارنا دون أو نجرؤ على الكشف عنها؟

إذا كانت الحقيقة تضر، فهل نفضل الحقيقة أم نختار العيش في الجهل؟

تساءل أخيرا، هل يمكن أن يكون الوجود نتيجة الإنكار؟

الرسالة من نفسي

بينما كان الآبق في تلك اللحظة، عائدا إلى حيث بدأ دون أن يدرك متى كان قد غادر أو ما إذا كان قد عاد بالفعل، وجد نفسه ممسكا بورقة صغيرة. لم يكن يعرف كيف وصل ذلك الشيء إلى يده. لكنه شعر بشيء غير مريح في أعماقه كما لو كانت لحظة من المفترض أن تحدث.

فتح الورقة بعناية، وكانت الكلمات الأولى التي قرأها تشبه صدى صوت غير مألوف، صوتًا غير صوت نفسه.

-أنا أنت، لكن من المستقبل. لا تسأل كيف. فقط اقرأ.

بقيت الكلمات تتراقص أمام عينيه كأنها تتلاشى في الهواء، وتترك وراءها فراغًا ثقيلًا. لم يكن متأكدًا إذا كان ما يقرأه حقيقة أم مجرد تمرد عقله. لكن الرسالة كانت واضحة، بما يكفي لتجعله يقف في مكانه، عاجزًا عن الحركة، وكل ما تبقى من صوته في داخله كان عبارة عن تساؤلات لا تنتهي.

-كيف يمكن أن تكون هذه الرسالة؟

- من أين جاءت؟

-من هو هذا الشخص الذي يدّعي أنه هو؟

- وهل من الممكن أن يكون ذلك هو ذاته، في وقت آخر، في مكان آخر؟

-وإذا كان المستقبل فعلاً هو الذي أرسل له هذه الرسالة،

- فماذا يخبئ له؟

لكن الأسئلة لم تكن فقط تتعلق بكيفية وصول الرسالة، بل بأعمق من ذلك. إذا كان المستقبل قد دخل إلى الوجود الحالي بهذه الطريقة، فهل كان هناك بالفعل مكان وزمان ثابتين، أم أن كل شيء مرن، يتداخل مع غيره بطريقة لا يمكن تفسيرها؟

إذا كان الزمن قابلًا للثني والتغيير، فهل يعني هذا أن الأشياء التي نراها اليوم قد تغيرت فعلاً في مكان ما من المستقبل، وأننا فقط نعيش في لحظة مؤجلة؟

وماذا عن نفسه؟ هل كان يعيش الآن حياته الأصلية، أم أن هذه اللحظة التي يمر بها هي مجرد لحظة من عدة لحظات قد اختلطت مع الزمن؟

وإذا كان المستقبل قد تداخل مع الحاضر بهذه الطريقة، فهل يعني ذلك أن الحياة ليست سوى سلسلة من المرايا المشوهة التي تعكس صورة واحدة، لكن عبر مسارات متفرقة؟

هل يمكن للإنسان أن يغير مستقبله بإدراكه لحظة معينة في الحاضر؟

أم أن الحقيقة هي أن المستقبل هو الذي يوجه الحاضر، كما يوجه النهر مجرى مياهه؟

المكان الذي لا يجب أن أكون فيه

كان الآبق يسير في طريقه كعادته، محاطًا بصمت الليل، عندما وصل إلى نقطة لم يتوقعها. كان قد مرّ بمناطق مشابهة مرارًا، لكن هذه المرة كانت الأرض تحت قدميه غريبة، وكأنها ابتلعت خطواته وحبسته في مكان غير مألوف.

عند أول منعطف، شعر بشيء غير طبيعي. كان الهواء ثقيلًا، يشوبه إحساس غريب بالضياع. لم يكن هناك من علامات تدل على الاتجاهات المعروفة، ولا حتى الأصوات التي تعود عليها في الأماكن الأخرى. كان هناك شيء غير مرئي يقيده في هذا المكان، شيء كان يشعره بأنه لا يجب أن يكون هنا.

ثم رآه. كان مبنى قديمًا، يبدو مهجورًا ، كان وكأن الزمن قد تجمد حوله. الأبواب كانت مغلقة، والنوافذ مظلمة، ولكن رغم ذلك، كان هناك شعور بأن هناك حياة في داخله، حياة كانت تدعوه دون أن تتحدث.

دخل دون أن يعرف لماذا. كان يعلم أنه كان من المفترض ألا يفعل، لكن شيئًا ما كان يقوده داخل هذا المكان. فور أن عبر عتبة الباب، شعر بشيء يتغير. كان الهواء أكثر كثافة، والزمن بدأ يسير ببطء. كما لو أنه دخل عالمًا آخر، حيث القوانين التي تحكمه لم تكن هي نفسها.

فكر في نفسه: كيف وصلت إلى هنا؟ هل كنت هنا من قبل؟ هل هذا المكان موجود في الواقع؟

كانت الأسئلة تتسلل إلى عقله كالسياط: هل كنت دائمًا على وشك دخول هذا المكان دون أن أدرك؟ و ماذا لو كانت هذه هي النقطة التي كنت أهرب منها طوال حياتي؟

كل خطوة كان يخطوها كانت تشعره أكثر بالغرابة. كان المكان يعكس شيئًا مظلمًا في ذاته، شعورًا بالعزلة والضياع. كما لو أن وجوده في هذا المكان كان خطأ لا يمكن تصحيحه. هل يمكن للإنسان أن يضل طريقه هكذا؟ أم أن هناك دائمًا مسارًا خفيًا يوجهه، سواء كان يعلم به أم لا؟

وبينما كان يتساءل عن السبب الذي دفعه لهذا المكان، اكتشف شيئًا مهمًا: في هذه اللحظة، كانت الأسئلة هي التي كانت تحاصره، بينما لم يكن لديه القدرة على العثور على إجابات. هل يُعقل أن تكون حياتي مليئة بهذه الأماكن التي لا أُفترض أن أكون فيها؟ و إذا كنت قد دخلت هنا، هل كان لدي خيار آخر؟ أم أنني كنت محاصرًا في مسار مكتوب؟

فقط عندما شعر بحافة الخطر، أدرك أنه قد دخل مكانًا لا يُفترض أن يكون فيه أبدًا. هل كان هذا هو مصيري؟ أم مجرد نتيجة عشوائية؟ و هل دخلت بإرادتي أم كنت مجبرا على ذلك ؟

الطريق الذي لا يؤدي إلى أي مكان

لم يكن مجرد شارع، بل امتدادٌ لا نهائي لشيء لا يمكن إدراكه. كان يسير، لكنه لم يقترب من أي وجهة، لم يشعر بأي تغير. نفس المباني، نفس الأضواء الخافتة، نفس الفراغ الذي يبتلعه دون أن يترك أثرًا.

خطواته لم تكن تقوده، بل كانت تدور به في حلقة، كأنما الوقت نفسه قد توقف أو انحنى ليجعل المسافة بلا معنى. كلما تقدم، عاد إلى حيث بدأ، كأن الشارع لم يكن مستقيمًا بل دائريًا، كأن كل شيء أعيد تشكيله أمامه ليبدو جديدًا وهو في الحقيقة قديمٌ متكرر.

هل كان يضيع؟

أين ينتهي الطريق الذي لا نهاية له؟

إذا لم تكن هناك وجهة، فهل للسير أي معنى؟

هل المشكلة في الشارع، أم في عقله الذي يعيد إنتاج الواقع ذاته؟

ماذا لو كان كل شيء في الحياة مجرد تكرار؟ وماذا لو كنا نعيش نفس اللحظة مرارًا دون أن ندرك؟

أدرك أنه قد يكون عالقًا. لكن السؤال الأهم لم يكن عن الطريق، بل عن نفسه:

هل يسير لأنه يريد الوصول، أم لأنه لا يستطيع التوقف؟

بدأ يشعر أن الزمن لم يعد كما كان. لم يكن يتقدم، ولم يكن يعود. فقط… يتكرر.

كان كل شيء مألوفًا بشكل يثير الرعب، كأن ذاكرته لم تعد قادرة على التفريق بين الماضي والحاضر. كان يرى نفس اللافتات، نفس الأبواب، نفس أعمدة الإنارة التي يلقي ضوؤها ظلالًا متطابقة لا تتغير. حتى أنفاسه بدت وكأنها تصدر في نفس الإيقاع، نفس العمق، نفس التردد.

بدأ يفكر: ماذا لو لم يكن هذا شارعًا عاديًا؟ ماذا لو كان انعكاسًا لعقله؟

كل خطوة خطاها بدت وكأنها تأكيدٌ لشيء لم يستطع إدراكه. لم يكن سجين الشارع، بل سجين التكرار. سجين نفسه.

هل نحن فعلاً أحرار في اختيار طريقنا، أم أننا ندور في دوائر خفية، نعيد نفس الأخطاء، نفس القرارات، نفس المصير؟

ماذا لو كان كل ما نعيشه قد حدث من قبل؟

وإن كنا عالقين في تكرار أبدي، فكيف نعرف؟

شعر برعبٍ جديد، ليس من الطريق نفسه، بل من إمكانية أن تكون حياته كلها نسخة مكررة، كُتبت من قبل، وتُعاد دون أن يدرك.

السر الذي لا يمكن فك شفرته

لم يكن الرمز مجرد شكل محفور في الحجر، بل كان حضورًا، شيئًا حيًا يتجاوز الإدراك. كلما أطال النظر إليه، شعر أن هناك شيئًا يتحرك خلفه، كأن النقوش تتبدل، كأنها لم تُنحت بل تنمو.

لم يكن بحاجة إلى فهمه ليعرف أهميته. كان يعلم، بيقين غير منطقي، أن هذا الرمز يحمل معنى جوهريًا، معنى ربما لا يمكن للعقل البشري أن يستوعبه. ومع ذلك، لم يستطع التوقف عن المحاولة.

لماذا يشعر أنه رآه من قبل؟

أين ومتى؟ أم أن السؤال الحقيقي هو: من كان عليه أن يكون حين رآه؟

ازدادت الأسئلة، لكنها لم تكن كافية. كان الرمز يرفض أن يُفك، كأنه يختبره، كأنه يسأله:

هل المعرفة حق للجميع؟

ماذا لو كان هناك أسرار لا يجب أن تُكشف؟

ماذا لو لم يكن الهدف هو الفهم، بل الاستسلام؟

تساءل

وماذا إن لم يكن الرمز هو اللغز؟ ماذا لو كان هو—العابر، الباحث، المتسائل—هو الشفرة التي لم تُفك بعد؟

وحين نظر مرة أخرى، لم يكن الرمز موجودًا.

لكن السؤال بقي:

هل كان الرمز موجودًا حقًا، أم أنه لم يكن سوى أثر لما لم يُفهم؟

اليقين الذي يدمرني

لم يكن يبحث عن الحقيقة، لكنها وجدت طريقها إليه. جاءت دون سابق إنذار، عارية من أي مجاز، قاطعة كحد السيف. لم تمنحه فرصة للإنكار، لم تترك له بابًا للفرار. في لحظة واحدة، انهارت كل الشكوك، وسقطت كل الافتراضات، ولم يتبقَّ سوى يقين حادّ، بارد، وقاسٍ كالموت.

شعر للحظة أن كيانه يتشقق، أن جلده لم يعد يناسبه، أن روحه تضيق بجسده. الحقيقة التي توصل إليها لم تكن مجرد معلومة، بل انفجارًا أعاد تشكيله من الداخل. كانت كمن يفتح عينيه للمرة الأولى بعد عمرٍ قضاه معصوبًا، ليكتشف أن الضوء مؤلم أكثر مما تخيله.

لكن هل الحقيقة نورٌ فعلًا، أم أنها ظلمةٌ من نوعٍ آخر؟

لماذا نظن أن اليقين يمنحنا القوة، بينما هو في الحقيقة يسلبنا الطمأنينة؟

إذا كنا نحن من نسعى للحقيقة، فلماذا نشعر بالضياع حين نجدها؟

حاول أن يتجاهلها، أن يعيد نفسه إلى حيث كان قبل أن يعرف، لكن الزمن لا يسير للخلف، والإدراك لا يمكن التراجع عنه. كان كمن يقف على حافة هاوية بلا قرار، يدرك أن الخطوة التالية ستغير كل شيء، لكنه لا يعرف إن كان السقوط موتًا... أم تحررًا.

هل يمكن للإنسان أن يعيش وهو يعرف شيئًا لا يحتمل معرفته؟

أم أن بعض الحقائق ليست للعيش معها، بل للموت من أجلها؟

في تلك اللحظة، أدرك أن الأمر لم يكن عن الحقيقة ذاتها، بل عن استعداده لتحملها. البعض ينكسرون تحت ثقلها، والبعض الآخر يُعاد تشكيلهم، لكن لا أحد يبقى كما هو.

والسؤال الأهم...

أي نوعٍ من الناس سيكون؟

لم يعد شيء كما كان. كان العالم من حوله لا يزال موجودًا، لكنه لم يعد يراه بنفس الطريقة. الأشخاص يتكلمون، يتحركون، يضحكون، لكن أصواتهم كانت بعيدة، كأن حاجزًا زجاجيًا يفصله عنهم. حتى جسده لم يعد يشعر به كما كان، وكأن يقينه الجديد قد نزعه منه، أو نزعه هو من نفسه.

بدأت الأسئلة تتكاثر في ذهنه كطفيليات تتغذى على هدوئه:

كيف يمكن للحقيقة أن تسرق منه إحساسه بالحياة بدل أن تمنحه إياه؟

هل كان أكثر حرية قبل أن يعرف؟ وهل الجهل، رغم كل شيء، نوعٌ من الخلاص؟

إذا كانت الحقيقة بهذه القسوة، فلماذا يسعى البشر خلفها وكأنها كنز؟

كل شيء كان يمضي كما هو، لكنه كان يشعر أنه الوحيد الذي تغيّر. اليقين الذي توصل إليه لم يمنحه المعنى، بل سلبه كل المعاني التي اعتقدها من قبل. كأن حياته بأكملها كانت قصة يرويها طفل، وحين اكتشف الحقيقة، أُجبر على محو كل الصفحات، ليبقى واقفًا أمام ورقة بيضاء لا يعرف كيف يملؤها.

كان يتساءل: ماذا لو أن الإنسان لا يبحث عن الحقيقة، بل عن وهمٍ يجعله يحتمل الحياة؟

هل تحمل الحقيقة ذاتها معنى، أم أن قيمتها تأتي من قدرتنا على تقبّلها؟

لكن الأسوأ من كل ذلك، كان سؤالًا واحدًا لم يستطع الهروب منه:

إذا لم يعد للحياة نفس المعنى بعد هذه الحقيقة... فهل يستحق أن يكملها؟

كل شيء من قبله أصبح بلا معنى، وكل شيء بعده صار عبثيًا. لم يكن هناك طريق للوراء، ولم يكن هناك طريق للأمام. كان عالقًا بين ما كان عليه وما أصبحه، بين ما يعرفه الآن وما يتمنى لو لم يعرفه أبدًا.

وربما... فقط ربما... لم تكن المشكلة في الحقيقة ذاتها، بل في ضعفه أمامها.

الحب و الفقد:

وجه بلا ملامح

لم يعرف الآبق متى بدأ هذا التعلق، لكنه استيقظ ذات يوم ليجد أن كل شيء قد اكتمل. لم يكن وجهه ثابتًا، لم يكن له شكل محدد، ومع ذلك كان يشعر أنه يعرفه أكثر من أي شخص آخر.

كيف يمكنك أن تحب شخصًا لا تستطيع تذكر وجهه؟ كيف يتعلق القلب بشيء يتغير في كل مرة؟

كل مرة يلتقي فيها بذلك الشخص، يكون وجهه مختلفًا. ليس بطريقة طفيفة أو غير ملحوظة، بل بتغير كامل. عيناه، أنفه، فمه، حتى خطوط جبينه... لم يكن هناك شيء ثابت. وكأنه يعيد تشكيل نفسه مع كل لقاء، أو ربما لم يكن له وجه واحد من الأساس.

كل لقاء كان مختلفًا، وكأنه يلتقي بحب جديد في كل مرة. لم يكن هذا طبيعيًا، ورغم ذلك، وقع في الحب.

لكنه لم يهتم. كان الحب جنونًا منذ البداية، فلماذا يبحث عن المنطق فيه الآن؟

"أنا لا أريدك أن تكون ثابتًا، أريد أن أتعلمك من جديد كل يوم."

لكن في لحظة ما، تسللت الحقيقة كسم زاحف: لم يكن يحب الشخص، بل كان يحب الفكرة. كان مأخوذًا بصورة لم تكن موجودة إلا في رأسه، معلقًا بحلم يتغير، وكأنه يحاول الإمساك بالماء.

"من أنت؟"

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسأل فيها السؤال، وكان يعلم أنه ربما كان يجب ألا يسأله أبدًا.

الشخص أمامه لم يبتسم، لم يتكلم. بدأ وجهه يختفي، يذوب في الفراغ، وكأن الضوء يسحبه بعيدًا. لم تعد هناك عينان، لا فم، لا ملامح... مجرد مساحة فارغة تبتلعه... فراغ يتشكل بلا نهاية.

"أنا انعكاسك، حبك، وهوسك... أنا كل شيء تريده أن أكون."

شعر بالرعب. هل كان يحب شخصًا حقيقيًا، أم كان يعيش في وهم صنعه بنفسه؟

هل الحب معرفة، أم مجرد إسقاطات نضعها على الآخرين؟

هل نحبهم كما هم، أم كما نريدهم أن يكونوا؟

الهوية ليست وجهًا، بل شعور. لكن كيف يمكنك أن تحب شيئًا لا يمكنك لمسه؟"

في تلك اللحظة، أدرك أن الحب قد يكون أجمل كذبة اخترعها الإنسان.

لم يدرك ذلك إلا متأخرًا. في البداية، بدا وكأنه مجرد وهم عابر، شيء تفعله الذاكرة حين تخونك التفاصيل. لكنه مع مرور الأيام أدرك أن الأمر أبعد من ذلك، أبعد بكثير.

الحب الذي لا يُعادله شيء

كيف يمكن أن يكون شخصٌ ما حقيقياً فقط حين تُغمض عينيك؟ كيف يمكن لقلبك أن يخفق لمن لا وجود له إلا في الليل؟

هل الأحلام أكاذيب، أم أنها الحقيقة الوحيدة التي لا تشوبها زيف الحياة؟

كل ليلة، كانت تأتي. لم يكن يعرف اسمها، لكنه كان يعرفها أكثر من نفسه. لم يكن يرى ملامحها بوضوح، لكنها كانت أجمل من أي شيء في يقظته. لم يكن يسمع صوتها، لكنه كان يفهمها دون كلمات. كانت هناك، في عالمٍ لا يخضع للمنطق، في مكانٍ لا ينتمي للزمن، في مساحةٍ لا تشبه أي شيء، لكنها كانت كل شيء.

كانت تزوره كل ليلة، بلا موعد، بلا وعود. يجلسان تحت سماء غير حقيقية، في أماكن لم يرها من قبل، يتحدثان عن أشياء لن يتذكرها عند الاستيقاظ. كان يشعر أنه يفهمها أكثر من أي شخص في الواقع، وكأن الأحلام مكان للحب الذي لا يحتاج إلى تفسير.

"أنت لي وحدي هنا، لكن أين أذهب حين أستيقظ؟"

كان الآبق يراها في أحلامه كما لو أن روحه كانت تترك جسده لترحل إلى حيث تنتمي. لكن كلما استيقظ، كان يشعر بالنقص. كأن جزءًا منه بقي هناك، معها، ضائعًا بين الحلم والواقع. هل كانت هي الحقيقة الوحيدة؟ أم كان وهمه أجمل من كل ما في هذا العالم؟

لم يكن لديه إجابة. كان يبحث عنها في النهار، في وجوه العابرين، في الكتب، في الأغاني، في كل لحظة صمت. لكن لا أحد كان يشبهها. لا أحد يحمل ذلك الدفء الذي يذوب في صدره حين يراها هناك، في عالمٍ لا ينتمي إليه إلا في النوم.

"أحبك أكثر مما يسمح به العالم، أكثر مما تتحمله قوانين الكون. أحبك كما يحب الليل قمره، رغم أنه لا يلتقيه إلا من بعيد."

لكنه كان يخشى السؤال الذي بدأ يتردد داخله كصدى لا نهاية له:

ماذا لو لم تكن هي حلماً؟ ماذا لو كان هو الحلم، وكانت هي الحقيقة؟

"أنا لا أختفي حين تستيقظ، أنت الذي يتلاشى كلما فتح عينيه."

كان يرتجف وهو يدرك الحقيقة المخيفة. ربما، في عالمها، كان هو مجرد حلمٍ يزورها ليلاً... ثم يختفي.

استيقظ وهو يتنفس بصعوبة، قلبه يخفق وكأنه خرج من قصة لم تنتهِ بعد. كان يعرف أنه سيعود إليها الليلة، وسيحبها أكثر مما يحتمل قلبه، وسيحزن أكثر مما يحتمل وعيه حين يستيقظ.

لكن إلى متى يمكن أن يحب شخصًا لا وجود له؟

وإلى متى يمكن أن يكتفي بوجودها في الليل، وهو يعلم أنه لن يلمسها أبدًا في الصباح؟

لكن يبقى السؤال الذي كان يخيف الآبق أكثر من أي شيء:

هل هي حلم... أم أنه هو الحلم؟

الرسالة التي لم تصل

كيف يضيع الكلام حين يكون أهم ما لدينا؟ هل الكلمات خائنة، أم أن الحب نفسه أكبر من أن يُسجن داخل الحبر؟ ماذا لو أن بعض المشاعر لا تتحمل ثقل الترجمة، فتهرب من اللغة كما يهرب الضوء من العتمة؟

كان الآبق يجلس أمام الورقة، يخطّ بيده جملة وراء أخرى، لكنها تتبخر قبل أن ينهيها. لم يكن وهماً. لم يكن سحرًا. كانت الحروف ترفض أن تبقى، كأنها تخبره: هذا ليس المكان المناسب للحب.

"أحبك بجنون..."

اختفت.

"أشتاق إليك كما يشتاق الموج إلى الغرق..."

تلاشت.

"لو كنتِ هنا، لقلت لكِ كل ما تعجز الورقة عن حمله، وكل ما يعجز الكون عن سماعه..."

فراغ ، الورقة عجزت بالفعل .

كيف يختفي الكلام حين يكون صادقًا؟ لماذا تهرب الكلمات حين تحاول أن تخلد الحب؟ هل يمكن للحروف أن تخاف، أم أن الحب أكبر من أن يُكتب؟

كان يحاول أن يملأ الفراغ بينها وبينه بالحروف، لكنها كانت تهرب، كأنها تخبره بأن الحب لا يُقال، بل يُشعر، بأن بعض المشاعر لا تتحمل سجن اللغة.
كان يحاول أن يقاتل الصمت، لكن الصمت كان أقوى. كان يريد أن يصرخ داخل الكلمات، لكن الكلمات لم تكن موجودة.
راح يفكر... هل المشكلة في الكلمات، أم فيه؟ هل هو الذي لا يستطيع الاعتراف، أم أن الحب العظيم لا يُكتب لأنه لا يُختصر؟
"ربما بعض المشاعر لا تُقال، لأنها خُلقت لتكون سرًا بين القلب والعدم."
ثم خطر له سؤال أخطر:
ماذا لو أن الرسالة تصل... لكنها ليست موجهة إليها؟ ماذا لو كانت هذه الكلمات تُكتب في مكان آخر، في عالم آخر، حيث هناك من يقرأها، من يشعر بها، من ينتظرها؟
"ربما بعض الرسائل لا تُكتب لتُقرأ، بل لتظل سرًا بين القلب والقدر."
نظر إلى الورقة البيضاء أمامه، ابتسم بحزن، ثم وضع القلم جانبًا. أدرك أن رسالته لم تختفِ... بل وصلت، فقط إلى حيث لا يعرف.

الشخص الذي لم يولد بعد

كان الليل سائلًا، كأن الظلام نفسه يتنفس. في تلك اللحظة بين النوم واليقظة، شعر به. لم يكن حلمًا، لكنه لم يكن يقظة أيضًا. كان شيئًا ثالثًا، شيئًا لم يُسمَّ بعد.

"أنت تسمعني، أليس كذلك؟"

لم يكن الصوت صادرًا عن شخص، بل عن فكرة، كأن الوجود ذاته قد قرر أن يهمس له. التفت... ولم يجد أحدًا. لكنه كان هناك. لم يكن وهماً، لم يكن ظلًا.

"أنا لم أولد بعد، لكنني أعرفك."

شعر الآبق برجفة، كأن جسده قد أدرك شيئًا قبل عقله. كيف يمكن لشخص ألا يكون، ومع ذلك يكون؟

"هل نحن أفكار قبل أن نصبح أجسادًا؟ هل نعيش في أذهان من سيأتون قبل أن نأتي؟"

كان الصمت ثقيلًا. لم تكن لديه إجابة، لكن الأسئلة بدأت تتوالد بداخله بلا توقف.

"هل يمكن أن يكون الحب موجودًا قبل أن يوجد المحبوب؟"

"وهل كان قلبك يعرفني قبل أن تعرفني؟"

"إن كنتُ لم أولد بعد، فهل يمكن أن تحبني الآن؟"

شعر كأنه يسقط في فراغ لا نهاية له، لكنه كان فراغًا دافئًا، مألوفًا. كأن شيئًا ما في داخله كان ينتظره طوال الوقت.

"ماذا لو أنني أحببتك قبل أن يسمح لي الزمن بذلك؟"

الهواء كان مليئًا بأشياء غير مرئية. احتمالات، احتمالات، احتمالات.

هل نحن نلتقي بأرواح لم تولد بعد، ونحبها دون أن ندرك؟

هل الماضي والمستقبل يلتقيان أحيانًا فقط لخلق لحظة مستحيلة؟

هل هناك حب يسبق الزمن... وينتظر؟

صمت. لم يعرف كيف يجيب. كل شيء حوله كان منطقيًا حتى تلك اللحظة، لكنه الآن يقف أمام فكرة ترفض المنطق.

"هل أكون قبل أن أكون؟ هل يمكن أن يوجد الشيء قبل أن يوجد؟"

"وهل أنت كنت موجودًا قبل أن تولد؟ أم أنك لم تكن شيئًا على الإطلاق؟"

شعر بدوار، كأن كيانه كله يعاد تشكيله. إذا كان هذا الشخص لم يولد بعد لكنه موجود، فهل يمكن أن يكون هو نفسه قد التقى بشخص ما قبل أن يولد؟ هل نحن مجرد امتدادات لقصص لم تبدأ بعد؟ هل يسبق المعنى الوجود، أم أن الوجود يخلق المعنى؟

"متى ستولد؟"

"عندما يصبح العالم مستعدًا لي، وعندما تصبح أنت مستعدًا لتتذكرني."

لكن ماذا لو لم يكن العالم مستعدًا أبدًا؟ وماذا لو أننا نحمل في داخلنا ذكريات عن أشياء لم تحدث بعد؟

القلب الذي لا ينبض

كان هناك شيء خاطئ منذ البداية. لم يكن ملموسًا، لكنه كان موجودًا كظل ثقيل لا يُرى. كانت تبتسم، تضحك، تعيش... لكنها لم تكن حية حقًا.

أحبها كما لم يحب أحدًا من قبل، أو ربما كما لم يحب أحد أحدًا من قبل. كانت كل لحظة معها تتجاوز الزمن، كأن العالم كله يتوقف عندما تتحدث، عندما ترفع عينيها، عندما تلمس الهواء بحركتها الخفيفة.

لكنه لم يسمع نبضها أبدًا.

في البداية، لم يلحظ. ثم بدأ يشك. ثم أصبح هاجسًا يطارده. كيف يمكن لشخص أن يكون بهذه الحياة... دون أن يكون حيًا؟

"أنا أحبك... لكن هل أنتِ حقًا هنا؟"

لم تجب. فقط نظرت إليه نظرة حملت حزنًا عميقًا، كأنها تعرف شيئًا لا يستطيع فهمه.

"ما الحياة إن لم يكن هناك نبض؟ وما الحب إن لم يكن هناك حياة؟"

أمسك يدها. كانت دافئة، لكنها بلا نبض.

"هل يمكن للقلب أن يتوقف عن النبض لكنه يستمر في الحب؟"

"هل يمكن أن يكون الحب هو ما يُبقي الإنسان موجودًا، حتى بعد أن يتوقف كل شيء آخر؟"

سألها أخيرًا:

"من أنتِ؟"

همست بابتسامة مكسورة:

"أنا ما تبقى منك... بعد أن توقف قلبك عن النبض."

شعر بالهواء يثقل، بالعالم ينهار داخله. تذكر كل شيء. الحادث، الصمت الطويل، الفراغ الذي ملأه بعدها.

كان يبحث عن نبضها... لكنه كان يبحث عن نبضه هو.

"هل يمكن للميت أن يحب؟ وهل يمكن للحب أن يكون الدليل الوحيد على أننا لم نفنَ بعد؟"

كان ما اكتشفه بمثابة الصدمة. قلبه لم ينبض، لكنه كان يعيش. أو هكذا كان يظن.

في البداية، شعر وكأنما كان يلاحق شبحًا أو حلمًا متقلبًا، شيئًا يراوده في كل لحظة، ومع ذلك، كان فارغًا. كان يفكر في حبها، في رائحتها، في تلك اللحظات التي جمعت بينهما، لكنه لم يستطع أن يجد أي أثر لنفسه في ذلك الحب.

"أين كنتُ طوال هذا الوقت؟"

متى توقف قلبه عن النبض؟ ومتى بدأ هذا الفراغ يملأ كل جزء منه؟ كانت الأسئلة تتوالى في ذهنه، وتعلق كل شيء بحافة الجنون.

هل الحب هو ما يصنع الإنسان؟ أم أن الإنسان هو من يصنع الحب؟

"هل كنتُ أعيش من أجل حبك، أم أنك كنتِ مجرد انعكاس لحبٍ لم أكن أعيشه بعد؟"

ثم جاء الاكتشاف الأخير: كان قلبه قد توقف منذ زمن طويل، لكنه لم يشعر به. هذا السكون في جسده كان مثل حجاب، يخيّل له أنه يعيش، بينما كان قلبه في مكان آخر، في زمن آخر.

"هل كنتُ في الحقيقة أحبك، أم أنني كنت أحب فكرة الحب نفسها؟"

كانت أسئلته تتسلل في كل زاوية من وجوده. كان يحاول أن يجد جوابًا واحدًا فقط، لكن الأجوبة بدت تائهة، بعيدة. هل يمكن للحب أن يكون غير مشروط بالحياة؟ هل يمكن للحياة أن تستمر دون أن ينبض القلب؟

"أنتِ لم تلمسيني أبدًا، ومع ذلك، كيف لك أن تملئي روحي حتى آخر قطرة؟"

كان يحاول فك شفرة هذا اللغز: هل كان هو قلبها المفقود أم أنها كانت روحًا ضائعة في جسده؟

الغموض و المجهول:

الباب الذي لا يجب فتحه

كان الليل قد أسدل عباءته على المدينة، مخيمًا في كل ركن، وأضاءت المصابيح الخافتة بضعف، وكأنها كانت تتنفس ببطء. كانت خطوات الآبق على الرصيف صوتًا غريبًا في هذا الهدوء، ليس لأنها كانت ثقيلة أو سريعة، بل لأن الليل نفسه بدا وكأنه يتنفس معه، يتبعه، يراقب كل خطوة يخطوها. كان يسرع تارة، ثم يتباطأ تارة أخرى، كأنه في سباق مع نفسه، أو مع شيء آخر لا يمكنه تحديده.

ثم رأى الباب.

كان مفاجئًا. لم يكن هناك من قبل، ولا حتى في اللحظة التي كان يمر فيها من أمامه. فجأة، وفي أقل من ثانية، ظهر، واقفًا أمامه بلا مقدمات. باب خشبي قديم، بزاويته الحادة، وطلائه المتآكل. لم يكن المكان الذي يقف فيه يحتوي على أي ملامح تدل على وجوده، كما لو أنه أخذ يتشكل فجأة في الفراغ.

لم يكن مترددًا. أمسك بالمقبض، دفع الباب، ولم يكن يتوقع ما سيحدث بعد ذلك.

ما إن فتحه، حتى شعر بالهواء يتغير. شعورٌ غريب اجتاح جسده، وكأن الهواء الذي كان يمر به قبل لحظة قد اختفى فجأة. دخل إلى مكانٍ لا يعرفه، ولا يفهمه. لم يكن هناك أي أفق، ولا سماء، ولا جدران يمكنه أن يرى. كل ما كان في هذا المكان هو العدم، فراغٌ موحش يتنفس معه، لا يتيح له فهم أي شيء. كان لا يزال

يقف، وكأن جسده قد خُطف إلى هنا رغماً عنه، وكأن اللحظة التي دخل فيها هذا الباب كانت بداية شيء لا مفر منه.

لكن الشيء الذي جعله يشتبه في أن هذا المكان ليس كما يبدو، كان الشعور الغريب الذي بدأ يراوده. كان هناك نوع من الإحساس الثقيل في الصدر، كأنما كان هناك من يراقبه، أو ربما كان هو نفسه مراقبًا. لم يكن هذا المكان عبارة عن ظلامٍ فقط، بل كان به نوع من الوجود الضبابي، الغامض. كان وكأن شيئًا يراقب كل حركة يخطوها، لكنه لم يكن بإمكانه أن يراه.

ثم، في تلك اللحظة، أدرك شيئًا: ربما هذا الباب لم يكن من المفترض أن يُفتح. ولكن، كيف كان بإمكانه أن يعرف؟

كيف له أن يدرك أنه لا يجب أن يفتحه قبل أن يراه؟

لم يكن هنالك ما يحمله على الاعتقاد أن هذا الباب هو أحد تلك الأبواب التي لا يجب أن يُعبث بها. لكن بعد أن اختفت جميع الصور حوله، بعد أن أصبح هو والفراغ شيئًا واحدًا، شعر بأن الخطوة التالية التي سيتخذها قد تكون النهاية، أو بداية شيء لا يُمكنه تخيله.

وهكذا، بابه الذي فتحه لم يكن مجرد باب، بل كان عالمًا جديدًا كاملًا يتراءى أمامه، ومكانًا سحب نفسه إليه رغماً عنه.

ما الذي يعنيه أن تفتح بابًا في مكان لا تعرفه؟ هل هو قرار عفوي؟ أم أن هناك شيئًا أعمق يقودك لفتح هذا الباب؟ هل هو فعل اخترته أم أنه كان محكومًا عليك؟ ما الذي يحدث عندما تجد نفسك في مكان لا يمت للواقع بصلة، حيث لا ملامح، لا أفق، ولا مرجع، وكأنك في حالة توقف الزمن؟

هل يكون الفضاء الذي تجد نفسك فيه أكثر من مجرد فراغ؟ هل هو مكان عابر، أو اختبار يفرضه عليك الوجود نفسه؟ هل ما تشعر به هنا هو مجرد انطباع

داخلي، أم أنه اختبار لوجودك نفسه، لذاتك؟ وهل أنت الذي فتحت الباب، أم أن الباب هو الذي جذبك إليه؟

هل يمكن أن تكون هنالك أبواب لا يجب أن تُفتح، أم أن كل باب هو مجرد بداية لمجهول جديد؟ هل نحن نبحث عن إجابات في أماكن نعرفها، أم أننا نخلق الأجوبة في أماكن لا ندركها؟ وإذا كان هذا الباب هو آخر ما يمكن أن تجده في رحلتك، هل ستكون مستعدًا للعبور إلى ما وراءه، أم أنك ستظل عالقًا بين هذا الوجود واللاوجود؟

إذا كانت هناك عواقب غير مرئية لكل خطوة نخطوها، فهل كان بالإمكان أن تتجنب هذه اللحظة؟ وهل حتى لو حاولت أن تعود إلى الوراء، هل سيكون ممكنا؟

الغرفة التي لم تكن هناك

في ليلة هادئة، وبينما كان الآبق يتنقل في أروقة منزله، توقف فجأة. لم يكن متأكدًا مما رآه. باب. باب لم يكن هناك بالأمس، ولم يكن هناك قبل دقيقة حتى. كان حيث لا ينبغي أن يكون شيء.

مدّ يده، لامس المقبض، كان لامعا و باردًا، كأنه لم يُمس قط. دفع الباب ببطء، فانفتح بصمت ثقيل.

في الداخل، لم تكن الغرفة تشبه أي شيء يعرفه. لم تكن مجرد امتداد للمنزل، بل كانت عالمًا منفصلًا تمامًا. الجدران قديمة، وكأنها تحمل آثار زمن لم يعشه، والسقف بدا أعلى مما يجب، كما لو أن المساحة هنا لا تخضع لقوانين المكان خارجها. على الطاولة الخشبية، كانت هناك أشياء مبعثرة: صور باهتة لأشخاص لا يعرفهم، كتب بخط يده لكنه لم يكتبها قط، رسالة تحمل اسمه لكنها لم تصدر عنه.

كيف يمكن لغرفة أن توجد دون أن يراها من قبل؟ هل كان منزله دائمًا يحوي هذه المساحة الخفية، لكنه لم يلحظها إلا الآن؟ أم أنها ظهرت فجأة، كما لو أن الزمن قد تغيّر دون أن يدرك؟ وإن كانت قد ظهرت الآن، فمن أين جاءت؟ ومن وضع هذه الأشياء هنا؟

مدّ يده إلى إحدى الصور. التقطها بحذر. في الصورة، كان هو، يقف في مكان لم يزره من قبل، يبتسم بجوار أشخاص لا يتذكرهم. كانت عيناه تحملان نظرة غريبة، كأنه شخص آخر، كأنه رجل عاش حياة موازية لا يدري عنها شيئًا.

من يكون إذن؟ هل هو ذلك الشخص الذي يعرفه، أم ذلك الذي لم يعرفه بعد؟

هل يمكن للذات أن تنقسم، أن تعيش في أماكن لا تذكرها؟

هل يمكن للذاكرة أن تخون، أم أن الحقيقة نفسها زئبقية، تتبدل بين العوالم كما تتبدل الظلال؟

ماذا لو كانت هذه الغرفة جزءًا من شيء أكبر، شيء لا يمكنه استيعابه الآن؟

ماذا لو كان فتح الباب قد غير شيئًا، شيئًا لن يستطيع إغلاقه مرة أخرى؟

منذ تلك الليلة، لم يعد العالم كما كان. لم يعد الآبق واثقًا من منزله، من جدرانه، من الغرف التي يمر بها كل يوم. أصبح كل شيء يحتمل أن يكون أكثر مما يبدو، أن يخفي خلفه طبقة أخرى من الواقع لم ينتبه إليها.

هل نحن نعيش حقًا في مكان واحد؟ أم أن هناك غرفًا مخفية، أماكن بين الأماكن، تنتظر فقط أن يراها أحد؟

بدأ الشك ينهش يقينه. ماذا لو لم يكن منزله منزله؟

ماذا لو لم يكن هو نفسه سوى شخص ظهر فجأة في جسد شخص آخر، دون أن يدرك ذلك؟

صار يتجنب تلك الغرفة، لكنه لم يستطع نسيانها. أحيانًا كان يسمع صوتًا خافتًا يأتي منها، كأن الزمن بداخلها يتحرك على إيقاع مختلف. وفي إحدى الليالي، عندما مر بجانبها، وجد الباب موصدًا... لم يعد يفتح.

لكنه كان متأكدًا من شيء واحد: لم يكن هو من أغلقه.

هل الأشياء توجد فقط لأننا نراها؟

وإن اختفت، فهل يعني ذلك أنها لم تكن هناك قط؟ أم أن الحقيقة لا تتعلق بوجود الأشياء، بل بوعينا بها؟

كل شيء بدا وكأنه سؤال لا إجابة له، وكأنه يعيش في متاهة لا يمكنه الخروج منها، متاهة لا تبدأ ولا تنتهي، تمامًا كالغرفة التي لم تكن هناك... حتى أصبحت.

الصوت الذي لا يسمعه أحد غيري

لم يكن نائمًا، لكنه لم يكن مستيقظًا بالكامل أيضًا. ذلك الحد الفاصل بين الإدراك والضياع، حيث الأشياء غير ثابتة، والواقع يتذبذب كضوء شمعة على وشك الانطفاء. هناك، في ذلك الفراغ الرمادي بين الحلم واليقظة، سمعه لأول مرة.

الآبق ، كان اسمه، مجرد اسمه، يُنطق بصوت هادئ، لكنه ليس مألوفًا. لم يكن فيه دفء ولا قسوة، لم يكن فيه شيء يمكن تحديده. فقط اسمه، مجرّدًا من أي مشاعر، يتردد في رأسه كصدى قديم.

فتح عينيه بسرعة. الغرفة كانت هادئة، لا شيء سوى نبض قلبه المتسارع. تنفس بعمق، أقنع نفسه بأنه مجرد وهم، لكنه عاد ليسمعه من جديد في الليلة التالية. ثم أصبح يسمعه أثناء النهار، وسط ضوضاء المدينة، أثناء حديثه مع الآخرين، حتى بين فترات صمته الطويلة. لم يكن الصوت صاخبًا، لم يكن مرعبًا، لكنه كان ثابتًا، متكررًا، كأنه يريد لفت انتباهه إلى شيء لم يدركه بعد.

في البداية، تجاهله. لكنه لم يتوقف.

في المرة الأولى التي ردّ فيها، كان ردّه مجرد سؤال:

"ماذا تريد؟"

لم يكن هناك جواب. فقط الصمت.

لكنه عرف، بطريقة ما، أن الصمت نفسه كان إجابة.

بدأ يشك في كل شيء. هل الصوت يأتي من داخله أم من خارجه؟ وإن كان من داخله، فمن الذي يتحدث؟ وإن لم يكن هو، فمن يكون؟ هل نحن كائنات من صوت واحد، أم أن هناك أصواتًا أخرى فينا تنتظر أن نسمعها؟

إذا كان الصوت لا يسمعه أحد غيري، فهل هو حقيقي؟ أم أن الحقيقة ليست سوى ما يتفق عليه الجميع؟

هل الصوت هو جزء مني، أم أنه شيء يحاول الدخول إليّ؟

إن كنت أسمع اسمي يُنطق دون أن يناديني أحد، فهل أنا منادَى، أم أنني فقط بدأت أدرك أنني موجود؟

ماذا لو لم يكن الصوت يخاطبني، بل يذكرني بشيء نسيته؟

وإذا كان الصوت صامتًا الآن... فهل هذا يعني أنه انتهى، أم أنه فقط ينتظر اللحظة التي أكون فيها مستعدًا لسماعه من جديد؟

الكتاب الذي يكتبني

لم يكن عنوانه واضحًا، الغلاف بلا اسم، بلا صورة، فقط جلد أسود بملمس غريب، كأنه ليس ورقًا بل شيء عضوي، شيء ينبض بخفوت. وجده على طاولته ذات صباح، لم يتذكر أنه اشتراه أو وضعه هناك. لم يتذكر شيئًا سوى أنه الآن أمامه، يدعوه للقراءة.

فتح الصفحة الأولى. كان ذلك أول خطأ.

كان اسمه مكتوبًا في السطر الأول، بخط مألوف... خطّه هو. استمر في القراءة، العبارات كانت تصف أحداث يومه السابق بتفاصيل دقيقة، لحظات لم يشاركها مع أحد، أفكار لم ينطق بها حتى لنفسه. قلب الصفحات بسرعة، وجد اليوم الذي يعيشه الآن مكتوبًا بالكامل، كل شيء يحدث لحظة بلحظة. لم يكن هناك أي خطأ، كأن أحدًا يراقبه وهو يكتب.

لكن يديه تجمدتا عندما وصل إلى الصفحة التي لم تحدث بعد.

في منتصفها، توقف السطر فجأة، وكأن القلم انكسر، أو كأن الكاتب لم يكن متأكدًا مما سيأتي بعد ذلك.

إذا كان هناك كتاب يكتب حياتي، فمن الكاتب؟ وهل أنا مجرد شخصية في قصة شخص آخر؟

ماذا لو لم يكن هذا الكتاب يسجل ما يحدث، بل يتحكم فيما يحدث؟

هل نحن نعيش وفق سيناريو مكتوب سلفًا، أم أن قراراتنا تكتب القصة أثناء سيرها؟

إذا وصلت إلى صفحة لم تحدث بعد، فهل يمكنني تغييرها، أم أن مجرد قراءتها يعني أنني سأعيشها كما هي؟

وإن كنت أنا من يكتب هذا الكتاب... فلماذا أشعر أنني أقرأه لأول مرة؟

بعد أن قرأ الجملة الأخيرة، شعر وكأن الزمن انكمش حوله، كأن كل شيء أصبح مترابطًا بطريقة لا يمكن فهمها. لم يعد متأكدًا إن كان يقرأ القصة، أم أن القصة هي التي تقرأه. لم يعد يعلم إن كان هو الذي يعيش الأحداث، أم أن الأحداث هي التي تشكّله لحظة بلحظة، كدمية خيطت بإبرة غير مرئية.

لكن السؤال الذي لم يستطع الهروب منه كان أبسط وأقسى:

"ماذا لو لم يكن هناك صفحة تالية؟"

إن كان هذا الكتاب يسرد حياته لحظة بلحظة، فإن وصوله إلى الصفحة الفارغة يعني شيئًا واحدًا... هناك حد. نهاية. نقطة أخيرة لم تُكتب بعد.

فهل كان هو من سيكتبها؟ أم أنها مكتوبة بالفعل، وهو فقط يسير نحوها دون أن يدري؟

أراد أن يختبر ذلك. أمسك القلم، اقترب من الصفحة البيضاء، لكنه لم يستطع الكتابة. أصابعه ارتجفت، وكأن قوة خفية تمنعه. أو ربما، لم يكن هناك شيء ليكتبه أصلاً... ربما كان قد وصل إلى حيث كان مقدّرًا أن يصل.

رفع عينيه عن الكتاب. العالم من حوله بدا مختلفًا. ليس بشكل واضح، لكن بإحساس خفي، كأن كل شيء كان نسخة معدلة قليلاً مما يعرفه.

فهل كان هو نفسه بعد أن قرأ؟ أم أن القراءة قد كتبته من جديد؟

الصورة التي تغيرت وحدها

في تلك الغرفة المظلمة، حيث كان ضوء المصباح الوحيد يرقب الزمن وهو يمر ببطء، كان الآبق يقف أمام صورة قديمة. كان قد علقها على الجدار قبل سنوات، ظنّ أنه لن يعود إليها أبدًا. كانت تلك الصورة مجرد لحظة من الزمن، إطار صغير يحتوي على وجهه في شبابه، يحمل بعض الملامح الباهتة للذكريات التي تقاسمتها الأيام. لا شيء غير عادي في تلك الصورة، كانت كغيرها من الصور التي تُؤرخ لحظات زائلة، أشياء يلتقطها الزمن ثم يلقي بها بعيدًا كما لو أنها لم تكن.

لكن، اليوم، شيء غريب حدث.

فجأة، وعندما دقق النظر في الصورة، بدأ يشعر بتغيير خفيف. كان ذلك خافتًا في البداية، لا يكاد يُلاحَظ. تغيّر في تعبير الوجه. هل كان هذا هو نفسه؟ هل كانت تلك هي نظراته؟ لا... كانت هناك شيء غريب، شيء يتسلل إلى الصورة، كما لو أنها تتحرك ببطء. كانت عيونه في الصورة تنظر إلى شيء لم يكن موجودًا هناك من قبل.

لم يكن الوقت يتوقف، لكن الزمن كما لو كان ينساب في اتجاه آخر. كانت الصورة تسجل شيئًا مختلفًا، شيئًا مقلقًا: بدا وكأنها تُعبر عن أحداث لم تحدث بعد. كانت عينيه، في الصورة، تتسعان شيئًا فشيئًا، تبحثان عن شيء بعيد، عن

شيء لم يدركه بعد، شيء كان يتجاوز اللحظة التي التقطت فيها الصورة. كان يراها تتحرك، تحكي له عن شيء لا يستطيع فهمه.

اقترب أكثر، لعله يتأكد من ما يرى. كانت كل التفاصيل، حتى تفاصيل شعره في الصورة، تتغير. شيئًا فشيئًا، بدأت الصورة تنقل إليه جزءًا من المستقبل، جزءًا من شيء لم يختبره بعد. كان يرى نفسه في مشهد لم يعشه، في مكان لم يكن قد زاره، وهو يحمل مشاعر لم يعرفها قط. هل كانت الصورة تنبؤًا؟ هل هي مجرد انعكاس لتفاصيل الحياة التي ستأتي، أم أن هناك شيئًا أكبر يخبئه الزمن؟

لم يكن قادرًا على الحركة. كانت الصورة تشده إليها بشكل غريب، وكأنها تمسك به من داخله. كانت تتنفس بطريقة ما. كانت الصورة تتحدث معه، بأشياء لا يستطيع إدراكها. شعور عميق بالضياع اجتاحه، وكأن الواقع يهرب منه، وكأن الحقيقة تفر منه ببطء. نظر إلى نفسه في الصورة، ولكن هل كان هو؟ أم أن هذه الصورة كانت هي التي تُعيد تشكيله؟

كلما نظر إلى الصورة أكثر، بدأ يكتشف التغييرات التي تحدث فيها. كانت العينان تزدادان عمقًا، كانا يتسعان أكثر فأكثر، بينما كان وجهه في الصورة يعكس شكلاً من القلق. كان قلبه ينبض في صدره بشكل متسارع، شعور بالضغط يراوده. ماذا كانت تلك الصورة؟ كيف يمكن لشيء لا يتحرك أن يلتقط شيئًا عن المستقبل؟ وهل فعلاً كان المستقبل هو ما يراه.

وبينما هو يقف هناك، عينيه مثبتتين في تلك الصورة المتغيرة، تساءل:

هل يمكن للصورة أن تكون أكثر من مجرد انعكاس للواقع؟ هل يمكن أن تكون نافذة لواقع آخر؟

هل كانت هذه الصورة هي ما سينقله الزمن إليه؟

أم أن هناك شيئًا في الصورة يحدد له قدره؟

هل كنا حقًا نعيش في اللحظة التي نراها، أم أن الزمن يتقاطع في مكانٍ ما بين الحاضر والمستقبل، يخلق تداخلًا عجيبًا بين ما حدث وما لم يحدث بعد؟

هل بإمكانك أن تلتقط لحظة تكون فيها كيانًا آخر؟"

تساءل، وهو يرى نفسه في الصورة، وفيها شيء أعمق من مجرد ذكريات. كان يستشعر أن الصورة تخبئ شيئًا آخر، شيئًا لم يكن يعلم به بعد. هل هو المستقبل الذي يعيد تصويره، أم أنه كان هو من يكتب تلك الصورة؟

هل أنا من أعيش الماضي، أم هو الماضي الذي يعيشني؟

كانت تلك الصورة تتحدث بلسانٍ مختلف، لسان لا يمكن أن يُسمع إلا في لحظات من الزمن لا يدركها العقل البشري.

ما الذي يحدث عندما تلتقي اللحظة بما لم يحدث بعد؟

هل يمكن للزمان أن يتداخل مع المكان؟ أم أن ما أراه في الصورة مجرد انعكاس لما سأكون عليه؟

أسئلة تهاجم عقله، كل واحد منها يجر الآخر بشكل متسلسل. كلما فكّر أكثر، كلما ازدادت الصورة غموضًا. هل هو من يعيش المستقبل في الصورة، أم أن الصورة هي التي تعيشه وتوثق تاريخه قبل حدوثه؟

هل نستطيع تغيير ما نراه في الصورة، أم أن الصورة هي التي تفرض علينا مسارنا؟"

هذه الصورة المتغيرة كانت تثير في نفسه سؤالًا عميقًا:

وفي صمت الغرفة، ومع تغير ملامح الصورة، فكر

هل الزمن هو الذي يمسك بنا، أم أن نحن من نركض وراءه؟

الحرية و القيد:

القرار المستحيل

وقف الآبق أمام مفترق الطرق، لا طريق إلى الوراء، ولا مهرب إلى الأمام. الخياران كانا يقفان أمامه، يحدقان فيه كما لو أنهما يملكان مصيره، وكأنه لم يكن له رأي في أي شيء. كل خطوة تحمل عواقب، وكل قرار يحمل في طياته شيئًا من الفقد. الحرية، في أبسط معانيها، لم تكن سوى وهم، كقفص بلا جدران، يركض فيه إلى أن يصطدم بالفراغ.

لم يكن هناك وقت للتفكير. أو ربما كان هناك، لكنه لم يكن كافيًا. هل يختار التضحية بشيء يحبه لينجو، أم يتمسك به ويهوي إلى الهاوية؟ هل الحرية أن تختار، أم أن تتقبل اختيارًا فُرض عليك؟

ماذا لو لم يكن هناك خيارٌ حرٌّ من الأساس؟

إن اختار الأول، سيبقى، لكنه لن يكون هو نفسه بعد الآن. وإن اختار الثاني، سيفقد كل شيء، لكنه سيبقى أمينًا لنفسه، ولو للحظة أخيرة. أيهما أكثر قسوة؟ أن تعيش مقيدًا أم أن تموت حرًا؟ أن تتألم من أجل البقاء أم تختار الفناء بشرف؟

وقف هناك، مدركًا أن أي خيار سيتخذه لن يكون هروبًا، بل سقوطًا في هوة مختلفة. كان السؤال الحقيقي ليس عن القرار، بل عن القيد الذي لم يدرك أنه يحمله طوال حياته. هل كان حرًا يومًا؟

أم أن الحرية مجرد سراب، نطارده حتى ندرك أنه لم يكن موجودًا أصلًا؟

عندما يكون الاختيار بين جحيمين، هل يمكن أن تُسمّى تلك حرية؟ أم أن الحرية الحقيقية تكمن في رفض اللعبة كلها؟ هل الإنسان مخيّرٌ فعلًا، أم أن كل قراراته ما هي إلا استجابة لحتميات خفية لم يكن له يدٌ فيها؟

كل الطرق تؤدي إلى الخسارة، لكن أيهما يحمل خسارةً أقل؟

أيُّهما أكثر قسوة: أن تخسر نفسك من أجل أن تبقى، أم أن تفقد وجودك حفاظًا على ذاتك؟ هل نحن أحرارٌ حين نُجبر على الاختيار، أم أن الحرية تقتضي ألّا يكون هناك اختيارٌ من الأساس؟

الحرية ليست أن تختار بين قيدين، بل أن تدرك أنك كنت مقيدًا منذ البداية.

إذا كان القرار حتميًا، فأين تكمن الإرادة؟ وإن لم تكن هناك إرادة، فلماذا نحاسب أنفسنا على قرارات لم نملكها أصلًا؟

أيهما أكثر ألمًا: أن تعرف أنك مقيدٌ وتقاوم، أم أن تعيش في الوهم معتقدًا أنك حُر؟

وقف هناك، والاختيار يحدّق فيه كوحشٍ يتغذى على قرارات البشر. لكنه أدرك في لحظة خاطفة... ربما لم يكن الاختيار هو القيد الحقيقي، بل وهم الحرية الذي أقنعه يومًا أنه قادرٌ على الاختيار.

السجن الذي لا أبواب له

استيقظ الآبق ذات صباح بشعور غريب، كأن الهواء نفسه قد أصبح أثقل، كأن الجدران التي لم تكن هناك بالأمس قد اقتربت قليلاً. خرج إلى الشارع، سار بلا هدف، لكنه لاحظ أن الطرقات تأخذه دائمًا إلى المكان ذاته، مهما انعطف، مهما حاول تغيير المسار.

كان كل شيء في المدينة طبيعيًا... طبيعيًا أكثر من اللازم. المارة يعبرون، يتحدثون، يضحكون، لكن أحدًا لم يحاول المغادرة. كأن الفكرة لم تخطر ببال أحد. لا أحد يتحدث عن خارج هذه المدينة، كأنها كل ما وُجد وكل ما سيكون.

حاول أن يستقل حافلةً، فسأله السائق ببرود: "إلى أين؟" لم يعرف ماذا يجيب. لا أحد يعرف اسم المدينة التي يسكنها، ولا أحد يعرف ما يقع خارجها. لا خرائط، لا اتجاهات، فقط دوران مستمر في ذات المكان.

وقف أمام الحدود، لا شيء هناك سوى الفراغ، طريق يمتد لكنه لا يُوصل. كلما خطا للأمام، عاد إلى حيث كان. حاول أن يسأل أحدهم عن الأمر، لكنهم ابتسموا كما لو أنه قال شيئًا سخيفًا.

أدرك الحقيقة البسيطة والمروعة:

هذا ليس سجنًا عاديًا. السجن هنا ليس في الجدران، بل في العقول. القيد لم يكن في المعابر، بل في الفكرة التي تربط الجميع بالمكان.

لكنه لم يكن مثلهم. عرف أنه محبوس، وهذا وحده كان كافيًا ليشعر بالقيد يحترق داخله. المشكلة لم تكن في المدينة، بل في السؤال الذي بدأ يُطارد عقله:

"إذا كنت قادرًا على الرحيل، فلماذا لا ترحل؟ وإذا لم تكن قادرًا، فما الذي يمنعك حقًا؟"

كلما أدرك الإنسان أنه مسجون، كان ذلك أول خيط في حريته. لكن، ماذا لو لم يكن هناك قضبان تُرى؟ ماذا لو كان القيد فكرة، والسجن اقتناعًا؟

هل السجن أن تُمنع من المغادرة، أم أن تعيش دون أن تفكر في المغادرة أصلًا؟

هل القيد في الحدود، أم في العجز عن تخيل العالم خارجها؟

نظر إلى الجميع و فكر

أسوأ القيود ليست تلك التي تُفرض عليك، بل تلك التي تُقنعك بأن لا شيء خلفها.

إذا كانت المدينة بلا أسوار، فلماذا لم يحاول أحد الهرب؟

وإذا كان الباب مفتوحًا، فلماذا لم يخرج منه أحد؟

"الحرية ليست أن تُفتح لك الأبواب، بل أن تؤمن بأن هناك ما هو أبعد منها."

هل هو حر لأنه حاول الفرار ؟، أم هم أحرار لأنهم لا يعرفون أنهم سجناء؟ وإذا كانت الحرية مجرد وهم، فهل القيود كذلك؟

أشد السجون ظلامًا هو الذي لا يدرك ساكنوه أنهم فيه.

العقدة التي لا تُحل

لم يكن الأمر معقدًا في البداية. مجرد مشكلة صغيرة، كأي مشكلة أخرى، لها بداية واضحة ونهاية منطقية. لكنه لم يكن يعلم أن كل محاولة لحلها ستجعلها أكثر تعقيدًا، كأنها خيط كلما شده ازداد التفافًا حوله، كأن الحل نفسه كان فخًا متنكرًا.

جلس في غرفته، يحدق في الورقة أمامه، حيث رسم دائرة في البداية، مجرد دائرة صغيرة. لكنه أراد أن يجعلها مثالية، فعدل خطها قليلاً. ثم قليلاً. ثم قليلاً... حتى تحولت إلى كومة من الخطوط المتشابكة، كأنها متاهة بلا مخرج.

بدأ يدرك أن الحياة كلها تعمل بهذه الطريقة. تحاول إصلاح شيء، فتفسد شيئًا آخر. تهرب من مشكلة، فتجد نفسك داخل أخرى. كأن العالم نفسه لا يريدك أن تفك عقده، بل يريدك أن تضيع فيها.

نظر إلى يديه، تساءل:

هل نحن من نصنع العقد، أم أننا مجرد خيوط تتشابك دون إرادتنا؟

هل نحن نحاول حل الحياة، أم أننا نحن المشكلة التي لا تُحل؟

بعض الأشياء خُلقت لتبقى عالقة، تمامًا كالأحلام التي لا تصل إلى نهاياتها أبدًا.

كلما ظن أنه اقترب من الحل، اكتشف أن المشكلة لم تكن هناك أصلًا، بل في طريقة تفكيره بها. كأن الحياة ليست معضلة تحتاج إلى حل، بل مجرد نسيج من الأخطاء المتكررة التي علينا أن نتقبلها.

فكر

ربما الحل الوحيد هو أن تتوقف عن المحاولة، أن تتقبل الفوضى كجزء من النظام، أن تدرك أن بعض العقد لم تُخلق لتُفك، بل لتذكرك بأنك ما زلت تحاول.

كلما حاول حل المشكلة، وجد نفسه غارقًا في أخرى. كأن العالم نفسه لعبة مُحكمة، كل خطوة فيها تُفضي إلى متاهة جديدة. لكنه بدأ يتساءل:

- هل الحلول موجودة حقًا، أم أننا نخلقها لنشعر أن هناك معنى لكل هذا؟

-ماذا لو كانت العقد جزءًا من التوازن؟ ماذا لو أن بعض الأبواب مغلقة لأنها ليست لنا؟

-هل المشكلة الحقيقية هي في العالم، أم في عقولنا التي تصرّ على فهم كل شيء؟

ماذا لو كنا نحن أنفسنا عقدًا في حياة شخص آخر؟ هل يمكن أن نكون جزءًا من لغز لا نملك مفاتيحه؟

"بعض المشاكل لا تُحل، ليس لأنها مستحيلة، بل لأننا لم نُخلق لنحلّها. بعض الأبواب ليست لك، وبعض العقد ليست لتُفك، بل لتبقى شاهدة على محاولاتك التي لم تصل إلى شيء."

العين التي تراني دائمًا

لم يعرف الآبق متى بدأ الإحساس. ربما كان دائمًا هناك، كظلٍ خلف وعيه، لكنه لم ينتبه له إلا عندما أصبح كل شيء ساكنًا.

كان يشعر به في زوايا الغرف، في التواءات الشوارع، في الفراغ بين الكلمات. لم يكن هناك شخص يراقبه... فقط إحساس ثقيل بأن هناك عينًا تراه دائمًا، حتى عندما لا يكون هناك أحد.

حتى في أحلامه، كان الحضور ذاته يرافقه. كان يتوه في متاهات لا نهائية، لكنه كان يعلم أنه ليس وحده. كلما التفت، وجد الفراغ ينظر إليه. لم يكن يعرف من يراقبه، ولا لماذا، لكن الإحساس كان ينخره كداء خفيّ، يفسد كل لحظة، حتى في أشد لحظات وحدته.

هل كان هذا الشعور حقيقة أم وهمًا زرعته العزلة في عقله؟

وإن كانت وهمًا، فهل يختلف الوهم عن الحقيقة إذا كان تأثيره نفسه؟

بدأ يشك في كل شيء.

هل حياته ملكه؟ هل أفكاره تخصه؟ أم أن وعيه نفسه جزء من سيناريو يُكتب في مكان ما؟

إذا كنت مرئيًا دائمًا، هل أنت موجود من أجلك أم من أجل من يراك؟

تساءل إن كانت الحرية مجرد فكرة خادعة. كيف يمكن أن يكون حرًا إذا كان دائمًا تحت عينٍ لا تنام؟ هل يكون الإنسان حرًا فقط عندما لا يراقبه أحد؟ أم أن المراقبة هي جوهر الوجود؟

"ربما لا شيء موجود حقًا إلا عندما يُرى."

إن كان يراه أحد، فهل يظل هو نفسه، أم يصبح مجرد صورة يُعاد تشكيلها في أعين الآخرين؟ وإن توقفوا عن النظر، فهل سيظل موجودًا؟

كلما حاول الهروب، ازداد الإحساس قوة. حتى ظله بدا وكأنه يتلصص عليه. وفي النهاية، أدرك الحقيقة المرعبة:

"الحرية ليست أن تكون وحدك... بل أن تنسى أنك مراقب."

كلما فكر في الهروب، أدرك أن السجن لم يكن في المكان، بل في الإدراك. لم يكن محبوسًا داخل الجدران، بل داخل وعيه بأن هناك من يراقبه.

"هل نحن أحرار عندما لا يرانا أحد، أم أن الحرية هي أن نكون كما نحن حتى عندما نُرى؟"

كان يريد أن يختفي، لا ليهرب، بل ليعرف إن كان سيظل موجودًا إذا لم يره أحد. لكن كلما حاول التلاشي، ازداد حضوره ثقلاً، كأن المراقبة هي ما تمنحه مبرر الوجود.

"إذا كنت مرئيًا دائمًا، هل أنت موجود من أجلك أم من أجل من يراك؟"

ما الفرق بين أن تكون سجينًا داخل قفص، أو داخل وعيك بأن هناك عينًا لا ترمش، لا تنام، لا تغيب؟ هل السجن هو القيد أم هو إدراك القيد؟

القفص الذهبي

كان الآبق يظن أنه قد حصل على كل شيء. الرفاهية، المال، الجاه، الأماكن التي طالما حلم بها، الناس الذين يرغب في حضورهم. كان يبدو وكأن الحياة قد أهدت له كل ما يمكن أن يطمح إليه إنسان. لكنه كان يعلم، في أعماق نفسه، أنه ليس حرًا. كان يقف أمام مرآة كبيرة، يراها أمامه تمامًا كما هي، لكنها لا تعكس صورته كما اعتاد أن يرى نفسه. لقد اعتاد أن يراها مشرقة، بلا أعباء، بلا جدران. لكن اليوم، كان يرى في انعكاسه سجينًا في مكان لا يعرفه، مكان أغرته فيه الرفاهية لكنه لا يستطيع مغادرته.

في البداية، كانت الرفاهية تتسلل إليه بهدوء، كأنها لا أكثر من طيف بعيد. كان كل شيء عابرًا في البداية، لحظات عابرة من السعادة. ثم، تحولت هذه اللحظات إلى شيء دائم. طعام فاخر، أسفار طويلة، وتجمعات مع أناس من الصف الأول. لكن، كلما حصل على المزيد، شعر كأن قلبه يفرغ شيئًا فشيئًا. كانت الأيام تمر بنفس الوتيرة، وكأنهم يقدمون له حياة بلا نهاية، لكنه بدأ يشعر أن كل شيء يتكرر. لا شيء جديد. لا مفاجآت. كان هناك شيء مفقود.

مرّةً، في لحظة من الوعي، نظر حوله في منزله الفخم، وتساءل:

هل هذا ما أريد حقًا؟ هل كانت هذه هي الحياة التي سعيت إليها؟"

لم يكن الجواب واضحًا، وكأن شيئًا ما غامضًا قد بدأ ينمو في أعماقه. في أحد أيامه الطويلة، جلس على الأريكة الفخمة يتأمل في نافذة زجاجية كبيرة تطل على

عالم جميل لا يشبهه. من الخارج، يبدو كل شيء في مكانه، كما لو أن الحياة تبتسم له. لكنه شعر بشيء غريب يضغط على صدره.

لم يكن المكان هو الذي يزعجه، بل فكرة أن كل شيء كان تحت سيطرته. كان كل شيء تحت أمره، لكن هذا كان هو نفسه قيدًا. لم يكن قادرًا على التغيير، على الهروب، على المضي في طريقه. كيف يمكنه أن يكون حرًا في مكان ليس فيه أي حواجز، لكنه يشعر أن الجدران تحيطه من الداخل؟

فكر

لقد حصلت على كل شيء، لكن هل يمكن للحرية أن تكون هدية بلا ثمن؟

هذا السؤال كان يلاحقه في كل لحظة. لماذا يشعر بأنه محاصر في قفص ذهبي؟

هل حقًا كان الأمر كما ظن؟

أم أن القفص الذي يعيش فيه ليس شيئًا ماديًا، بل هو ما صنعه لنفسه؟ كان يحصل على كل ما يريده، لكنه كان يسأل نفسه دائمًا:

ماذا إذا توقفت عن الحصول على المزيد؟ ماذا إذا كان ما لدي الآن هو كل شيء؟

ثم، في لحظة مفاجئة، شعر أن القفص الذهبي قد بدأ يضيق. لا هواء. لا سعة. كان يركض خلف رغباته، لكن كلما ركض، شعر كأنما هو يتوغل في مكان ضيق لا مخرج له. كان كل شيء من حوله يتلألأ، لكنه لا يقدر أن ينظر إلى أي شيء بعمق. كان محاصرًا في عالم من الزجاج. كان الجمال حوله، لكن كان الزجاج يفصل بينه وبين الحياة الحقيقية.

ما الفائدة من كل هذا، إذا كنت لا تستطيع الهروب؟ ما الفائدة من الأشياء التي تملكها إذا كنت لا تملك حق مغادرتها؟

كان كل شيء كما أراده، ولكن بدا أن كل شيء قد فقد معناه. إذا كانت الأشياء التي يريدها هي من تمنعه من الحرية، فهل ما زال يريدها؟ وماذا يعني أن يكون لديك كل شيء إذا كنت غير قادر على اتخاذ قرار بأن تكون لا شيء؟

في تلك اللحظة، أدرك أنه قد كان يتمنى أشياء كثيرة، لكنه لم يتمن شيئًا واحدًا: الحرية.

يعيش في عالم يبدو مثاليًا، لكن داخله يشعر وكأن شيئًا ما مفقود. كان قد حصل على كل شيء، لكن لم يحصل على الشيء الذي يجعل حياته ذات معنى. الجدران التي لا تراها العين، الحواجز التي لا يستطيع رؤيتها، هي ما يعوقه. لم يكن حرًا كما كان يظن. بدأ يتساءل:

هل كانت الحرية هي ما يريده حقًا؟ أو أن ما كان يطلبه هو مجرد مساحة للمزيد من الرغبات، المزيد من الأشياء التي لا تملأ الفراغ الذي يشعر به؟

في قلبه، بدأ يطرح الأسئلة التي لم يكن لديه الإجابة عليها من قبل. هل الحرية تقتصر على القدرة على اتخاذ القرارات؟ ماذا لو كانت الحرية في اختياراتنا هي تلك التي تحددها رغباتنا، وأن ما نريد هو أكثر من مجرد امتلاك الأشياء؟ هل كنا حقًا أحرارًا عندما سمحنا للظروف بأن تسيطر على أفكارنا وأحلامنا؟ ألم نكن قد أضعنا أنفسنا في هذه القفص الذهبي بأنفسنا؟

تسللت هذه الأسئلة إلى تفكيره كما يلتف الدخان في الغرفة المغلقة. كان يشعر أن القفص الذي يعيش فيه ليس سوى نتيجة لاختياراته. هل كان هو من بنى أسواره بتلهفه؟ أم أن المجتمع كان هو من فرض عليه هذه الحدود؟ هل نحن أحرار في اختياراتنا حقًا، أم أننا محاصرون في تصورات الآخرين عنا؟

ثم تلاشى صوت داخله، وكأن التردد أخذ مكان اليقين. هل كان هو من أراد أن يصبح هذا الشخص الذي يملك كل شيء؟ أم أن هذا كان مجرد دور قد كُتب له

في مسرحِ الحياة؟ هل كان هو من قرر؟ أم أن الحياة هي من قررت له؟ هل يمكن للفرد أن يمتلك نفسه حقًا، أم أنه مجرد انعكاس لما يحيط به؟

تلك اللحظات التي وقعت فيها جميع أسئلته على نفسه، جعلته يدرك شيئًا عميقًا: هل كان كل هذا الرفاه والنجاح يعني حقًا أنه كان على المسار الصحيح؟ في النهاية، ترك كل هذا خلفه. فربما، الحرية الحقيقية تكمن في أن لا نملك شيئًا على الإطلاق.

القيمة و المعنى

الرسالة الأخيرة في الوجود

جلس الآبق أمام الورقة البيضاء، القلم في يده يرتجف كعصفور حائر، وكان قلبه ينبض بخفقات ثقيلة، كما لو أن كل نبضة كانت تقود إلى النهاية. أدرك في تلك اللحظة أن الوقت قد حان لكتابة شيء كان يراوده منذ فترة طويلة، شيء قد يكون آخر ما يتركه في هذا العالم. كانت الرسالة أشبه بنقش على جدار الزمن، لا يمكن محوه أبدًا.

-هل هذه فعلاً آخر كلمات لي؟

سأل نفسه، وهو ينظر إلى الورقة وكأنها مرآة تعكس حياته كلها. كان يشك في أن الكلمات التي سيكتبها ستلخص كل شيء مر به. لكن ما الذي يمكن أن تتركه كلمات في عالم مليء بالصخب؟ ما الذي يمكن أن يعنيه قرار كتابتها في النهاية؟

بدأ يكتب بصعوبة، وكأن الحروف كانت تبتعد عنه كما تبتعد الغيوم عن الشمس. "إلى من يقرأ هذه الرسالة في المستقبل، أو في الأبد، أكتب كآخر محاولة لفهم هذه الحياة التي عشتها."

-ثم توقف. هل يهم إذا قرأ أحد هذه الكلمات؟

تساءل وهو يعيد قراءة ما كتب. لقد عاش حياته محاطًا بالأشخاص، والأحداث، والأفكار التي كانت تمثل حياته، لكن الآن، في هذه اللحظة، كل شيء بدا فارغًا. هل كان حقيقيًا؟ هل كانت تجاربه ذات معنى؟ كيف يمكن للكلمات أن تعبر عن تجربة الحياة، وكل ما شهدته من لحظات ضياع، وحب، وصراع؟

تابع الكتابة، وكأن الكلمات بدأت تتدفق بشكل أكثر سلاسة.

"إذا كنت تقرأ هذا، فأنت الآن جزء من لحظة انتهت قبل أن تبدأ. قد تعتقد أنني هنا، ولكنني في الحقيقة انتهيت منذ وقت طويل. فالحياة، كما تعلم، لا تمنحنا دائمًا الفرصة لإغلاق الأبواب خلفنا."

وقف للحظة، عينيه ضائعتين في الفراغ، ثم سأل نفسه بصوت داخلي:

-هل كان من الممكن أن يكون شيء آخر؟ هل كان من الممكن أن تكون الحياة أكثر توازناً أو معنىً؟ هل كانت الحقيقة التي رآها في حياته مجرد انعكاس لما يريد أن يراه؟ أو ربما كان يبحث عن الأجوبة في أماكن لا توجد فيها إلا الأسئلة؟ هل كان ينبغي لي أن أعيش حياة مختلفة؟ هل كان لدي خيارات؟

عاد إلى رسالته وكأنها آخر فرصة لإيجاد معنى لما عاشه.

"لن يكون لدي فرصة أخرى لكتابة هذه الكلمات. لذا، إذا كنت تقرأها، فاعلم أنني كنت أحاول أن أترك شيئًا ذا معنى، حتى لو كان ذلك مجرد كلمات."

ثم وضع القلم جانبًا، وعيناه ضاعتا في الفراغ مرة أخرى. لقد عرف في أعماق قلبه أنه لا توجد إجابة حقيقية، ولا كلمات يمكن أن تشرح كل شيء. هل كانت هذه الرسالة تعبيرًا عن الحقيقة؟ أم أنها كانت محاولة لإقناع نفسه أنه وجد المعنى؟

وبينما أغلق الورقة، شعر بشيء غريب يسري في جسده. هل كان ذلك شعورًا بالسلام، أم أنه كان استسلامًا لأسرار الوجود التي لا نهاية لها؟ هل كانت الحياة مجرد سؤال لا يُجاب عليه، أم أن المعنى الذي بحثت عنه كان دائمًا بين يديك، لم تراه؟

أغلق عينيه، وعاد إلى الصمت الذي يحيط به، وترك الرسالة هناك، في مكان ما بين الجواب والسؤال.

بعد أن ألقى القلم على الطاولة، بقي الآبق جالسًا في صمت طويل، كأن الوقت قد توقف. كانت تلك الرسالة، التي كتبها بإحساس عميق من الغموض والشك، قد وضعت أمامه أسئلة لم يكن مستعدًا للإجابة عليها.

-هل فعلاً تركت شيئًا ذا قيمة؟

سأل نفسه. كانت الكلمات، تلك التي اعتقد أنها ستعكس جوهر تجربته، بدت فجأة غير كافية لملء الفراغ الذي شعر به داخل نفسه.

-هل يمكن أن تكون هذه الكلمات هي ما يعبر عني؟"

فكر، وهو يحدق في الورقة أمامه. الحياة بأسرها، بكل لحظاتها المؤلمة والمفرحة، بدا أنها تختزل في كلمات قليلة على ورق. لكن ماذا عن كل اللحظات التي لم تُقل؟ ماذا عن تلك التي بقيت مختبئة في الأعماق، دون أن تجد سبيلًا إلى النور؟

ثم تتابعت الأسئلة في ذهنه، غير قابلة للهدنة. إذا كانت الحياة مجرد سلسلة من اللحظات المتتالية، كيف يمكننا أن نجد معنى حقيقيًا في شيءٍ لا نملك السيطرة عليه؟ هل المعنى الذي نبحث عنه في هذه الحياة مجرد وهم نخلقه لأنفسنا كي نتفادى الفراغ؟ أين كان المعنى الحقيقي عندما عشت تلك اللحظات السعيدة؟ هل كانت تلك اللحظات مجرد سراب؟

بدأت الأسئلة تتوالى كأمواج بحرية عاتية،

- هل كانت حياتي تتابعًا منطقيًا، أم أنني كنت أعيش في دائرة مغلقة من القرارات التي كنت أعتقد أنها حرة؟ هل كنا دائمًا في سجن من صنعنا، نعتقد أننا أحرار، بينما القيد هو الذي يحدد مصيرنا؟ هل يمكن أن نصل إلى الحقيقة؟ أم أن الحقيقة مجرد مجموعة من الآراء التي نريد تصديقها؟

وحين أمسك بالورقة التي كتب عليها رسالته، سأل نفسه: هل الكلمات يمكن أن تحمل في طياتها شيئا حقيقيا؟ أم أنها مجرد محاولات فاشلة للتواصل مع عالم لا

نستطيع فهمه؟ كان يشعر في أعماقه أنه رغم محاولته الحثيثة للعثور على معنى، إلا أن المعنى كان بعيدًا جدًا، كما لو كان يمسك بشيء غير ملموس.

كل سؤال كان يفتح بابًا جديدًا للشكوك. هل كانت رسالتي تعبيرًا حقيقيًا عن من أنا؟ أم أنها كانت مجرد رد فعل على خشيتي من النسيان؟

وأخيرًا، سأل نفسه سؤالًا كان ربما هو الأكثر إيلامًا:

هل نحن مجرد أفكار تتناثر في الهواء، وأجساد ضائعة في الزمن، أم أن لدينا وجودًا حقيقيًا؟

الحياة بلا معنى

في اللحظة التي استفاق الآبق فيها من نومه، شعر بشيء غريب. كانت أشعة الشمس تلتف حوله من خلال نافذة الغرفة، لكن لم يكن في ذلك الضوء أي دلالة على بداية يوم جديد. كان كل شيء كما هو، لكنه كان مختلفًا. شعر وكأن الزمن توقف في مكانه. لا أصوات، لا حركات، ولا حتى همسات الهواء، كل شيء كان جامدًا، ثابتًا، بلا تغيير.

وقف، نظر حوله، لكن الغرفة كانت كما تركها. لم يتغير فيها شيء. خرج إلى الشارع، حيث كانت الحركة المعتادة تسير، لكن هذه المرة كان هناك شعور غريب يتسلل إلى قلبه. الناس يسيرون، يتحدثون، يتفاعلون، لكن لا شيء مما يفعله هؤلاء الأشخاص كان له أي تأثير عليه.

-هل أنا هنا حقًا؟

تساءل. لم يكن هناك شيء يربطه بأي شيء مادي. لم يشعر بأي رغبة في المضي قدمًا. كان هناك شعور غامض بأن كل خطوة يتخذها ستؤدي إلى لا شيء.

أخذ خطوة أخرى، ثم توقف. أمامه، كان مشهد الحياة اليومية، لكن فجأة، لم يشعر بأي معنى لوجودها. الناس كانوا يتكلمون، يضحكون، يتشاجرون، لكن كل تلك الأفعال كانت تبدو بعيدة جدًا عنه، كما لو أنها تحدث في عالم آخر. كان الصوت يصل إليه، لكنه لا يترك أي أثر. كل شيء كان عابرًا، غير مؤثر. شعر وكأن كل شيء لا معنى له. هل كانت حياتي أنا أيضًا مجرد حركات فارغة؟

كان يبحث عن شيء ملموس ليشعر به، شيء يمكنه أن يمنحه معنى. لكنه لم يجد أي شيء. عاد إلى غرفته، جالسًا على الأريكة، وغارقًا في هذا الشعور الجديد. ما فائدة كل ما نفعله إذا لم يكن له تأثير؟ تساءل وهو ينظر إلى يديه. هل أفعالي حقًا تغير شيء في هذا العالم؟ كل ما فعله، كل قرار اتخذوه، بدا كأنه مجرد تمثيل بلا جمهور. كان يركض في دائرة مغلقة، دون أن يعرف إلى أين يقوده.

لكن كان هناك سؤال لا يمكنه الهروب منه: إذا اختفت العواقب، هل نحن حقًا أحرار؟ هل يمكن أن يكون هذا ما يعنيه الحرية؟ أن كل شيء لا يؤثر، وأن كل شيء عابر؟ هل هذه هي الحياة التي لطالما رغبنا فيها؟ فكّر وهو يتأمل في نفسه. إذا كانت العواقب مجرد وهم، فهل يوجد أصلاً شيء يسمى "القرار"؟ شعر وكأن زلزلة وجودية بدأت تأخذ ملامحها في ذهنه.

أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يسير في المكان الذي كانت فيه حياته، لكن كل شيء أصبح ضبابيًا، كما لو أن الوجود نفسه بدأ يتلاشى. هل هذه هي الحقيقة التي كانت مخفية عنا طوال الوقت؟ كانت كل أفعاله بلا معنى، وكان كل كلامه لا يترك أثرا.

كيف يمكن أن نعيش في عالم لا يوجد فيه أي تأثير على ما نقوله أو نفعله؟

وصل إلى النهر، وجلس على ضفافه. المياه كانت تتدفق بلا توقف، وكأنها تحاول أن تذكره بشيء ما. لكنه لم يعد يرى في تدفقها أي معنى. هل تدفق المياه هذا مختلف عن حياتي؟ تساءل. هل نحن جميعًا مثل تلك المياه؟ نتدفق بلا هدف واضح، بلا وجهة نهائية؟

كل تلك الأسئلة دارت في ذهنه بينما كان يقاوم الشعور العميق بعدم المعنى. إذا اختفى الهدف، هل تبقى الحياة حقًا حياة؟ كان يشعر وكأنه محاصر في عالم بلا معنى، بلا تأثير، حيث لا تترك أفعاله أي أثر في الواقع. هل يكمن المعنى في فعل الأشياء حتى لو كانت بلا نتيجة؟ أم أن الحقيقة هي أن كل شيء مجرد وهم؟

بالرغم من كل الأسئلة التي تجتاح ذهنه، بدا أن الإجابة الوحيدة التي يمكنه التوصل إليها هي أن الحياة بلا معنى. وأنه هو من يجب أن يخلق هذا المعنى، إذا كان بإمكانه ذلك. ولكن كيف؟ وكيف يمكن له أن يعرف ما هو المعنى إذا كان ليس هناك أي دليل على وجوده؟

شعر وكأنه يطفو في بحر من اللاجدوى، حيث كل حركة تقوم بها، كل لحظة عيش، تذوب في اللاشيء. هل الحياة مجرد زخم من الأفعال العمياء التي لا يمكن أن تخلق معناً؟ هل جميع محاولاتنا في خلق الأثر ليست سوى محاولات يائسة في عالم لا يعبأ بمن نكون أو بما نفعل؟

كانت كل الأسئلة تتراكم في ذهنه، وتحاول أن تزعزع أركان يقينه عن العالم، عن ذاته. هل الإنسان في النهاية هو الذي يخلق معنى وجوده؟ أم أن هذا المعنى مجرد سراب؟

المكان الذي لا يُذكر

في أحد الأيام التي كانت تشبه غيرها من الأيام، قرر الآبق أن يخرج في رحلة عشوائية لا هدف لها. كانت المسافة التي قطعها طويلة وغير مفهومة، كما لو أن الطريق نفسه كان يتحول ويتغير كلما تقدم فيه. لكن هذا لم يكن أغرب ما اكتشفه. ففي منتصف الطريق، وجد نفسه في مكانٍ لم يعهده من قبل.

كانت المدينة أمامه. غريبة بكل تفاصيلها. منازلها، شوارعها، وحتى ملامح السماء فيها بدت وكأنها رسمت خصيصًا له. لكن ما أثار انتباهه أكثر هو أنه لا يستطيع أن يذكر أي شيء عن هذه المدينة، ولا حتى اسمها. كانت جدرانها تنبض بالحياة، لكن لا شيء فيها كان يشير إلى الزمن أو الذاكرة.

هل هي حقيقة أم خيال؟

كان السؤال يلتف في رأسه بلا توقف. المدينة نفسها كانت مشهدًا من فيلم قديم، تتكرر فيه التفاصيل بشكل مزعج، ويشعر كأنها فُرضت عليه من قبل قوى غامضة. أما الناس الذين يسيرون في شوارعها، فقد كانوا يتجنبون التواصل معه، وكأنهم لا يرونه حقيقة. حاول أن يخاطبهم، لكنهم لم يجيبوا. وكأنهم لم يكونوا أكثر من مجرد طيف في هذا العالم الغريب.

هل هذه المدينة هي انعكاس لما فقدته من ذاكرتي؟ تساءل. كان قلبه ينبض بشدة وهو يحاول أن يجمع معالمها في ذهنه، لكن كلما اقترب منها، ازداد تداخل تفاصيلها، كما لو أن الزمن نفسه كان يتلاشى.

لماذا لا تُذكر؟

لم يجد اسم المدينة في أي خريطة. لا تاريخ، ولا سجل، ولا حتى إشارات تشير إلى مكانها في هذا الكون. إذا كانت المدينة لا تُذكر، فهل هي موجودة حقًا؟ كان الآبق يقف أمام هذه الفكرة كمن يواجه سرابًا يعجز عن الوصول إليه.

هل نحن جزء من شيء أكبر لا نفهمه؟ كانت هذه الأسئلة تعصف بعقله.

هل يختبئ معنا شيء أكبر من أنفسنا؟ تساءل وهو يتجول في شوارعها الهادئة.

كان يشعر أنه عالق في مفترق طرق بين عالمين: عالمه الذي ينتمي إليه، وعالم المدينة التي لا مكان لها في الذاكرة.

هل نحن مجرد ذكريات عابرة في ذهن شخص آخر؟

في اللحظة التي نظر فيها إلى السماء الملبدة بالغيوم، شعر كما لو أن المدينة ليست أكثر من مجرد فكرة تتلاشى عندما تلامسها الذاكرة. هل كان هو نفسه مجرد فكرة في ذهن شخص آخر؟

ألم يكن يومًا ما جزءًا من شيء آخر، شيء لا يستطيع تذكره؟

تساءل وهو يسير في شوارع المدينة، ومع كل خطوة كان يشعر أنها تختفي أكثر فأكثر.

هل الزمن مجرد وهم؟ هل كل خطوة على هذه الأرض كانت تُكتب في مكان آخر قبل أن نعيها؟ هل نحن، كما هذه المدينة، مجرد ذكرى متلاشية في كون آخرين ؟

البطل الذي لم يُذكر أبدًا

كان الآبق واقفًا على حافة المدينة، يراقب الحشود التي تهتف، الأعلام التي ترفرف، والضوء الذي يملأ السماء. لقد فعلها. غير مجرى التاريخ. حرر ما لم يكن من المفترض أن يُحرر، حطم قيدًا لم يكن من المفترض أن يُكسر. لقد كان هذا يومه، اللحظة التي سينقشها الزمن في ذاكرته للأبد.

لكنه شعر بشيء غريب. شيء لم يكن على ما يرام. عندما التفت ليبحث عن عيون تعكس مجده، وجدهم جميعًا ينظرون إلى الأمام، إلى شيء آخر، كأنهم لم يروه قط. لم يكن هناك من يردد اسمه، لم يكن هناك من يشير إليه بإعجاب.

كان هناك فقط حدثٌ بلا بطل.

حاول أن يتحدث إلى أحدهم، أن يخبرهم بأنه هو من فعل ذلك، لكنه وجد كلماتهم تخونه.

"من فعلها؟"

سألهم، لكنهم لم يملكوا إجابة. كانوا يتذكرون ما حدث، لكنهم لم يتذكروا من قام به.

شعر الآبق بكيانه يتآكل، كأن وجوده كان مشروطًا بذاكرة الآخرين. وقف في ساحة المجد التي صنعها بيديه، لكنه كان كالغبار الذي لا يراه أحد، مجرد فراغ لم يترك صدى. هل كان ذلك عقابًا على رغبته في العظمة؟ أم أن البطولة وهمٌ لا يتحقق إلا إذا صدّقه الآخرون؟

حاول أن يصرخ، أن يعلن عن نفسه، لكن صوته لم يكن سوى همس يتلاشى في الهواء. أدرك حينها أن السؤال لم يكن عن الفعل، بل عن من يتذكره.

-هل نحن موجودون لأننا نعرف أنفسنا، أم لأن الآخرين يعرفوننا؟

-هل يبقى الإنسان إنسانًا إذا مُحي اسمه من التاريخ؟ وإذا لم يكن هناك شاهد على المجد، فهل كان المجد حقيقيًا؟

وفي النهاية، عندما لم يبقَ أحد ليتذكره، أدرك الحقيقة المرعبة: ربما لم يكن هنا أبدًا.

-هل البطل هو الفعل أم الذكرى؟

-هل يكون المرء بطلاً إذا لم يكن هناك من يتذكره؟ هل تكفي العظمة إن لم تكن هناك ذاكرة تحرسها؟ ماذا لو كانت البطولة مجرد صدى يُنسى قبل أن يبلغ الوعي؟

"لقد فعلتُها... أليس كذلك؟"

تساءل الآبق، لكن صوته لم يجد صدى، حتى في داخله.

-هل يبقى البطل بطلًا إذا كان لا أحد يراه؟ أم أن البطولة مجرد انعكاس في عيون الآخرين؟

وفي تلك اللحظة، بدأ يتلاشى. ليس جسدًا، بل فكرة. كان وجوده مرتبطًا بالذاكرة، وحين خانته الذاكرة، خانته الحياة ذاتها.

سؤال أخير فكر فيه

"ما الفرق بين أن تكون منسيًا وبين ألا تكون قد وُجدت أصلًا؟"

أثر الخطوة الأخيرة

وقف الآبق على عتبة الباب، يتأمل الفراغ الممتد أمامه. لم يخطُ بعد، لكن الأرض أمامه بدأت تتشكل، كأنها تنتظر قراره. لم يكن هذا شعورًا مألوفًا، بل كان يقينًا غريبًا يزحف في كيانه: المستقبل لم يكن مكتوبًا، بل كان يُصنع مع كل خطوة لم تُتخذ بعد.

رأى نفسه يسير إلى الأمام، فرأى مدينة تنهض من العدم، وجوهٌ لم يولد أصحابها بعد، حكايات لم تُحكَ، أقدار لم تُختم. رأى نفسه يتراجع، فرأى الظلام يبتلع الأفق، كأن شيئًا لم يكن. لم يكن القرار مجرد اختيار، بل كان الفارق بين الوجود والعدم.

-هل نحن من نصنع الطريق، أم أن الطريق كان موجودًا بانتظار أن نخطو؟

-هل اختياراتنا تُغيّر العالم، أم أن العالم يتغير فقط ليجعلنا نؤمن بأننا من قرر؟

-ماذا لو لم تكن القرارات التي لم نتخذها مجرد احتمالات، بل واقعًا آخر ينتظرنا في جانب خفي من الزمن؟

في تلك اللحظة، أدرك أن خطوته التالية لن تكون مجرد خطوة. كانت إعلانًا عن حقيقة لم يكن مستعدًا لمواجهتها: أن كل طريق لم يسلكه، كان طريقًا سلكه شخص آخر يشبهه في عالم آخر.

-فمن منهما هو الحقيقي؟ ومن منهما كان مجرد صدى قرار لم يُتخذ بعد؟

-هل نحن الذين نختار الطريق، أم أن الطريق كان ينتظرنا منذ البداية؟ إذا كان لكل خطوة أثر، فهل هذا يعني أن كل تأخير، كل تردد، كل قرار غير محسوم يخلق واقعًا آخر؟ ماذا لو كان العالم الذي نعيشه مجرد ظلٍ لقرار لم نتخذه؟

-ماذا لو كان الطريق الذي لم نختره أكثر واقعية من الطريق الذي سرنا فيه؟ كل خطوة إلى الأمام تقتل طرقًا أخرى إلى الأبد. لكن، هل تختفي فعلًا، أم تستمر في مكان آخر، حيث نسخة أخرى منا اختارتها؟ هل نحن الوحيدون في هذه اللحظة، أم أننا مجرد واحدٍ من احتمالات لا نهائية تتفرع مع كل اختيار؟

-هل القرارات التي نندم عليها هي تلك التي اتخذناها، أم تلك التي لم نجرؤ على اتخاذها؟ ماذا لو كان الندم ليس شعورًا بالخطأ، بل استشعارًا لعالم آخر كان يمكن أن يكون؟ هل نشعر بالخسارة لأننا فقدنا شيئًا حقيقيًا، أم لأننا أدركنا أننا أغلقنا بابًا لا يمكن العودة إليه؟

-ماذا لو كان المستقبل موجودًا بالفعل، لكنه ينتظر اللحظة التي نقرر فيها أن نراه؟ إذا كان الماضي قد حدث، فهل المستقبل قد حدث أيضًا، لكنه مخفي خلف اختيارنا؟ هل المستقبل كامن في انتظار قرارٍ واحد ليكشف عن نفسه؟ هل نحن حقًا نصنع الغد، أم أننا فقط نزيح الستار عنه؟

-هل الحرية الحقيقية هي القدرة على الاختيار، أم التحرر من الحاجة للاختيار؟ نحن نعيش بظنّ أننا أحرار لأننا نختار، لكن ماذا لو كان الاختيار في حد ذاته قيدًا؟ ماذا لو كنا محاصرين بفكرة أننا يجب أن نقرر، بينما كان يمكننا فقط أن نكون؟

-هل الأشياء التي لم نفعلها أكثر تأثيرًا من الأشياء التي فعلناها؟ إذا كان العالم يتغير بناءً على قرارات لم نتخذها بعد، فهل هذا يعني أن أكثر لحظاتنا تأثيرًا هي تلك التي لم تحدث بعد؟ هل غياب الفعل يمكن أن يكون أقوى من الفعل نفسه؟

كيف نعرف أن اختيارنا كان صحيحًا إذا لم نعش البديل؟ نحن نمضي في الحياة حاملين قناعة أن ما اخترناه كان الأفضل، لكن ماذا لو كان البديل أكثر ازدهارًا؟ هل السعادة التي نشعر بها بعد الاختيار هي حقيقة، أم مجرد آلية دفاعية للعقل حتى لا يغرق في احتمال آخر أجمل لم نعشه؟

هل نحن أبطال قصتنا، أم مجرد شخصيات في سيناريو مكتوب مسبقًا؟ إذا كان العالم يتغير بناءً على قراراتنا، فهل نحن من نكتب القصة، أم أننا فقط نؤدي أدوارًا داخلها؟ هل الكاتب هو من يختار الكلمات، أم أن الكلمات هي التي تجرّه حيث يجب أن يذهب؟

ماذا لو كان الزمن ليس مستقيمًا، بل دائرة تلتف حول قراراتنا؟ إذا كانت كل خطوة تفتح احتمالًا جديدًا، فهل هذا يعني أن الخيارات التي لم نتخذها قد تعود إلينا من طريق آخر؟ ماذا لو كان كل اختيار مهمل يجد طريقه إلينا لاحقًا، لكن في صورة مختلفة؟

هل يمكننا يومًا أن نعرف إن كنا قد اخترنا "الصحيح"، أم أن الإجابة ستبقى غامضة إلى الأبد؟ نحن نسير في الحياة وكأننا واثقون من أن مسارنا هو الصواب، لكن ماذا لو لم يكن هناك "صواب" أو "خطأ"؟ ماذا لو كانت الحياة كلها سلسلة من التجارب التي لا تحمل إجابة مطلقة؟ هل راحة البال تأتي من الإيمان بأننا اخترنا الصحيح، أم من تقبّل أننا لن نعرف أبدًا؟

الواقع و الوهم:

اليوم الذي أصبح فيه الجميع أنا

في البداية، لم يلاحظ شيئًا غريبًا. مرّ بجوار المقهى المعتاد، وألقى نظرة خاطفة على زجاج النافذة. بدا المكان مألوفًا، حتى التفت فرأى النادل... وكان يشبهه تمامًا. نفس العيون، نفس التقاسيم، نفس النظرة المألوفة التي يراها في المرآة كل صباح. ارتبك للحظة، ظن أنه مجرد تشابه غريب. لكنه عندما حدّق في الزبائن الجالسين، شعر بالقشعريرة تتسلل إلى روحه.

كلهم... كانوا هو.

نفس الوجه، نفس الملامح، كلهم يتحدثون، يضحكون، يشربون القهوة، لكن بوجهه هو.

هرع إلى الشارع، اصطدم برجل عجوز يحمل ملامحه. التفت نحو المارة، نحو السائقين في السيارات، نحو الأطفال الذين يركضون على الرصيف. كلهم... كلهم كانوا هو.

ركض نحو بيته، وحين فتح الباب، وجد نفسه جالسًا على الأريكة، يشاهد التلفاز.

رفع "ذاته" رأسه ونظر إليه دون ذهول، كأن وجوده كان متوقعًا. توجه إلى غرفته، لكنه لم يجدها كما تركها. بدلاً من سريره، وجد صفوفًا من الأسرّة، كل منها يرقد عليه "هو".

حين نظر إلى المرآة، لم يرَ انعكاسه، بل غرفة ممتلئة بنسخ لا نهائية منه، كلها تراقبه بابتسامة مريبة.

أسئلة وجودية تتفجر من هذا الوهم:

هل يمكن أن أكون أنا، دون وجود الآخر؟ إذا صار الجميع أنا، فمن أنا حقًا؟ هل هويتي قائمة على الاختلاف، أم أنني مجرد انعكاس للناس من حولي؟

هل "الأنا" شيء ثابت، أم أنه يتشكل بناءً على من حولي؟ إذا كان العالم كله أنا، فهل أنا شيء منفصل أم مجرد تكرار لا نهائي؟ هل الفردانية ممكنة دون الآخر؟

إذا صار الجميع أنا، فهل هذا يعني أنني كنت مجرد نسخة منذ البداية؟ هل كنتُ أصلاً مختلفًا، أم أنني أعيش وهم التفرد؟ هل الشخص الذي أظنه "أنا" ليس سوى انعكاس لما يراه الآخرون؟

هل الوعي بالذات يعتمد على وجود اختلافات بيني وبين الآخرين؟ إذا كنت أرى نفسي في كل وجه، فهل أنا موجود فعلًا؟ أم أنني تلاشيّت في تكراري؟

إذا لم يعد هناك أحدٌ سواي، فهل يظل للعالم معنى؟ هل كان العالم دائمًا مجرد مجموعة من "الآخرين"، أم أنني كنت أخدع نفسي باعتقادي أنني فريد؟ ماذا لو كانت كل هويتي قائمة على الاختلافات، وليس على ما أنا عليه حقًا؟

هل الوحدة تعني غياب الآخرين، أم غياب الاختلاف؟ إذا تحوّل كل البشر إلى أنا، فلماذا أشعر بهذا الرعب؟ هل كنتُ أخشى العالم أم كنتُ أخشى أن أكون وحدي فيه؟

هل الإدراك بحاجة إلى مرآة خارجية؟ إذا كنت أنا المقياس الوحيد للحقيقة، فكيف يمكنني معرفة ما هو حقيقي؟ هل كنت دائمًا أعيش في انعكاس ذاتي، وهذا العالم ليس إلا صدى متكرراً لما أريد أن أراه؟

ماذا لو لم يكن الآخرون حقيقيين من البداية؟ ماذا لو كنتُ الوحيد الموجود، والكون كله كان تمثيلًا صنعه عقلي؟ إذا كان الجميع أنا، فهل كنت طوال الوقت أعيش في وهمٍ صنعته لنفسي؟

ماذا لو كان الاختلاف مجرد خدعة؟ ماذا لو لم يكن هناك "آخر" منذ البداية، وكل ما عشته كان سلسلة من الانعكاسات المختلفة لذاتي؟ ماذا لو لم يكن هناك عالم خارج أفكاري؟

إذا فقدت القدرة على التمييز بيني وبين الآخرين، فهل ما زلتُ أملك وعياً؟ أم أنني مجرد فكرة متكررة بلا أصل؟ إذا لم يكن هناك فرق بيني وبين العالم، فهل أنا موجود أم أنني اختفيت في امتدادي؟

الأحلام التي تستيقظ معي

في البداية، لم يكن الأمر مقلقًا. كان مجرد تشابه عابر، وجوه مألوفة تظهر وسط الزحام. المرأة التي جلست أمامه في القطار تشبه تلك التي رآها في حلم الليلة الماضية، الرجل العجوز الذي يطعم الطيور عند الناصية يشبه تمامًا الحكيم الغامض الذي حاوره في حلمه قبل أسبوع.

ثم بدأ الأمر يتكرر. أصبح الآبق يرى نفس الأشخاص، ليس مرة واحدة، بل مرارًا. وجوه من الأحلام تتجسد في الواقع، بأدق تفاصيلها. الرجل ذو الوشم الغريب الذي أنقذه من سقوط في منامه، ظهر بجواره في المقهى، بنفس النظرة الحادة ونفس الندبة تحت عينه. الطفلة التي ضاعت في حلمه قبل شهور، وجدها تلعب في الحديقة المجاورة، ترتدي نفس الفستان الأحمر وتحمل نفس الدمية البالية.

عندما سألهم، لم يعرفوا شيئًا. لا يتذكرون أنه رأوه من قبل، ولا يملكون أي فكرة عن الأحلام التي جمعتهما. لكنهم كانوا موجودين. كانوا حقيقيين.

حين بدأ يرى في أحلامه شخصًا يحدّق فيه دون أن يتحدث، عرف أن الأمور خرجت عن السيطرة. الرجل لم يفعل شيئًا، لم يقل شيئًا، فقط راقبه. وعندما استيقظ، رآه جالسًا في المقهى المقابل، يحدق فيه بنفس النظرة.

دفعه ذلك ليفكر

-هل الأحلام مجرد خيال عقلي، أم أنها نافذة لعالم آخر؟ إذا التقيتُ بشخص في حلمي ثم وجدته في الواقع، فهل أنا الذي استدعيته، أم أنني كنت أعيش وهمًا أكبر؟

-ماذا لو كانت الأحلام ذكريات من حياة أخرى؟ هل نحن نعيش حيوات متعددة تتداخل بين النوم واليقظة، دون أن ندرك ذلك؟

-إذا أصبح الحلم واقعًا، فأين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر؟ ماذا لو كانت الأحلام هي الحقيقة، والواقع هو مجرد انعكاس ضبابي لها؟

-هل الأشخاص الذين نراهم في أحلامنا كيانات حقيقية تعيش في بُعد آخر، أم أنهم مجرد نتاج خيالنا؟ وإذا كانوا مجرد خيال، فلماذا يظهرون في الواقع؟

-ماذا لو كان العقل قادرًا على خلق الواقع؟ هل نحن نحلم بأشياء تحدث لاحقًا، أم أننا نصنع المستقبل بمجرد تخيله؟

-هل توجد حياة أخرى نعيشها أثناء النوم؟ وإذا كانت كذلك، فأي حياة منهما هي الأصلية؟ هل أنا الشخص الذي يحلم، أم أنني الحلم نفسه؟

إذا بدأتُ أرى كوابيسي تتجسد في الواقع، فهل هذا يعني أنني أعيش داخل عقلي؟

ماذا لو كان كل شيء مجرد إسقاط ذهني، وأنا الوحيد الذي لا يدرك ذلك؟

هل الأشخاص الذين نلتقيهم في الأحلام يلتقوننا أيضًا؟

لم يكن الأمر مزحة، ولم يكن تهيؤات عقل متعب. في البداية، رأى شبحًا مألوفًا في المقهى، ثم لمح وجهًا يعرفه جيدًا لكنه لم يلتقِ به يومًا. في اليوم الثالث، سمع اسمًا غريبًا يهمس به في حلمه، ليجده مكتوبًا على ورقة ملقاة في الشارع عند استيقاظه. كان العالم يتكسر عند الحواف، والحدود بين النوم واليقظة تتلاشى.

في البداية، حاول أن يتجاهل الأمر. ربما كان عقله يخدعه، يربط بين صور عشوائية ليصنع قصة وهمية. لكنه لم يكن وهمًا عندما صافح رجلاً كان قد قتله في حلمه ليلة البارحة. ولم يكن تهيؤًا عندما همست له فتاة يعرفها من أحلامه: "لقد تأخرت كثيرًا."

هل كانت أحلامه تنزف إلى الواقع، أم أن الواقع كان يتسرب إلى أحلامه؟ هل كان يعيش في عالم واحد أم عالمين، متداخلين كصفحتين شفافتين فوق بعضهما؟ وإن كان الأمر كذلك، فمن الذي يتحكم؟ من الذي يكتب القصة؟

ماذا لو لم يكن هو الحالم؟ ماذا لو كان مجرد شخصية في حلم شخص آخر، شخص بدأ الآن فقط في الاستيقاظ؟ هل كان مجرد ظل لفكر آخر، كائنًا بلا إرادة حقيقية، ينتظر أن يقرر عقله النائم مصيره؟

بدأت الأسئلة تلتهمه. إن كان يلتقي بمن زاروه في أحلامه، فهل يمكنه أن يعثر على نفسه في حلم أحدهم؟ هل يمكنه أن يرى صورته في خيال شخص آخر؟ وإن فعل، أيهما سيكون الحقيقي؟ أيهما سيكون الأصل، وأيهما سيكون انعكاسًا؟

وفي النهاية، وقف أمام المرآة يتأمل عينيه. هل هو من يحلم، أم أنه حلمٌ يستيقظ الآن؟

العالم المرسوم

استيقظ الآبق ذات صباح ليجد أن العالم قد تحول إلى لوحة زيتية ضخمة، كل شيء حوله كان ضربات فرشاة متقنة، تفاصيل ملونة لم تكن تمتلك الصلابة الحقيقية، بل بدت وكأنها تنتظر أن تجف قبل أن تصبح واقعًا ثابتًا. لكنه لم يكن وحده هنا.

عندما سار في هذا العالم المرسوم، بدأ يلتقي بوجوه يعرفها جيدًا، وجوه لم يكن من المفترض أن تكون هنا، لأنها لم تكن يومًا أكثر من شخصيات في أحلامه ، كيانات عابرة ظهرت في ليالٍ قديمة ثم اختفت مع الفجر. لكن ها هم الآن أمامه، ينبضون بالحياة داخل هذه اللوحة، ينظرون إليه كما لو كانوا بانتظاره منذ زمن.

"أين نحن؟"

سألهم، لكن أصواتهم لم تكن أكثر من صدى خافت، وكأنهم يرددون أفكاره بدلاً من أن يجيبوها. حاول أن يلمس أحدهم، لكن أصابعه اخترقت جسده و صلرت أصابعه دبقة بلون القميص ، كأنهما ليسا على نفس المستوى من الوجود.

شخص ما كان يرسم شيئًا، شيئًا جديدًا.

لكنه لم يكن يرسم فقط، بل كان يرسمه هو أيضًا.

رأى ظله على القماش، ملامحه تتغير، تتبدل، كأن مصيره لم يُحسم بعد. هل كان هذا يعني أن بإمكانه أن يختفي؟ أن يتحول إلى شخصية أخرى؟ وإذا كان كذلك، فمن الذي كان يتحكم في الفرشاة؟

"ماذا لو كنتُ أنا من يرسم نفسي، لكنني نسيت؟"

كان السؤال كفيلاً بأن يزلزل كيانه. إذا كان الحلم قد خرج إلى الواقع، وإذا كان العالم قد تحول إلى لوحة، فهل كان هناك فرق بين الاثنين؟ أم أن كل شيء لم يكن سوى طبقات فوق طبقات، كل طبقة تطمس التي قبلها؟

وحين مد يده ليمسك الفرشاة، أدرك الحقيقة الأكثر رعبًا: إن لم يرسم نفسه، فإن أحدًا آخر سيفعل.

إذا فهو مجرد حلم يحلم ؟

الخيال الذي يُغيّر الواقع

بدأ الأمر كوميض عابر، فكرة لم يكن لها وزن، مجرد نزوة عقلية راودته قبل أن يمضي يومه المعتاد. تخيّل، بلا سبب واضح، أن تمطر السماء بلا توقف. لم يكن مشهدًا غريبًا، بل مجرد صورة عابرة خطرت له وهو يشرب قهوته أمام النافذة.

ثم سمع أولى قطرات المطر ترتطم بالزجاج.

في البداية، ظنها الآبق مصادفة، لكن المطر استمر... لساعات، ثم لأيام. بدأ الناس يتحدثون عن ظاهرة جوية غريبة لم يشهدوها من قبل، بينما كان هو يعرف الحقيقة: لقد تخيل هذا.

لم تكن هذه المرة الأولى. لطالما امتلك خيالًا نشطًا، لكنه لم يكن يدرك أن خياله قادر على صناعة الواقع. جرب الأمر مجددًا، بعفوية، فكر في كلب أسود ضخم يقف عند زاوية الشارع. خرج بعدها بلحظات، وهناك، بجانب المصباح المنطفئ، كان الكلب واقفًا، ينظر إليه مباشرة، كأنه كان بانتظاره.

لم يكن قادرًا على استيعاب حجم ما يحدث، لكن سرعان ما أدرك المشكلة الحقيقية: لم يكن يستطيع التحكم في هذا الخيال. لم يكن بإمكانه أن يحدد ما سيحدث، بل كان عليه فقط أن يتوقع، أن يتخيل، دون أن يكون له أي سلطة على التفاصيل.

ماذا لو تخيّل شيئًا خاطئًا؟ ماذا لو فكر، مجرد تفكير، في أن يحترق منزله؟ أن تنهار المدينة؟ أن ينتهي العالم؟ هل سيحدث ذلك؟ أم أن الخيال له حدود لا يعرفها بعد؟

بدأت الأمور تخرج عن السيطرة. بدأ عقله يسرح في اتجاهات لم يكن يريدها، أفكار مرعبة، صور مفزعة، ومخاوف دفينة لم يكن يريد أن تصبح حقيقة. استيقظ ذات ليلة ليجد أن القمر قد أصبح أحمر كقطعة ملطخة بالدماء، تمامًا كما تخيّله في كابوسه قبل ساعات. في اليوم التالي، اختفى أحد أصدقائه دون أثر، بعد أن تخيّل، بلا قصد، أنه لم يعد موجودًا.

كيف يوقف هذا؟ كيف يمنع خياله من تشكيل العالم؟ هل عليه أن يتوقف عن التفكير تمامًا؟ أن يسجن نفسه في غرفة فارغة، بلا مؤثرات، حتى لا يسمح لعقله بأن يتلاعب بالواقع أكثر؟

لكن ماذا لو تخيّل، ولو للحظة، أنه لا يستطيع إيقاف الأمر؟ ماذا لو آمن بأنه لن يتمكن أبدًا من استعادة السيطرة؟ هل سيتحول هذا أيضًا إلى حقيقة؟

-ماذا لو كان الواقع كله ليس سوى انعكاس لأفكارنا؟ هل نحن نحيا في عالم مستقل، أم أن العالم ينبثق من وعينا، يتشكل كما نتصوره، ويتلون بظلال مخاوفنا وأحلامنا؟

-إذا كان كل ما أتخيله يصبح حقيقيًا، فهل يعني هذا أنني كنتُ دائمًا أخلق الواقع، لكنني لم أكن أعي ذلك؟ هل قراراتي، رغباتي، وأحلامي السابقة هي التي صاغت ما أنا عليه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن أنا؟ مجرد فرد يعيش داخله؟-

-ما الفرق بين الخيال والواقع إن لم يكن هناك حد فاصل بينهما؟ إن كنتُ أستطيع تغيير العالم فقط لأنني فكرت بذلك، فهل كان العالم موجودًا قبلي؟ أم أن وجوده بالنسبة لي بدأ فقط عندما وعيت به؟

-هل نحن سجناء لأفكارنا؟ إذا لم أستطع التحكم في مخيلتي، فهل هذا يعني أنني أيضًا لا أتحكم في حياتي؟ وإذا كان عالمي وليد عقلي، فهل حياتي كلها ليست سوى قصة يرويها وعيي لي؟

-لكن ماذا لو تخيّلت أنني سأتوقف عن الوجود؟ ماذا سيحدث حينها؟ هل سأختفي فعلاً؟ أم أنني سأظل موجودًا، ولكن في قصة أخرى، يرويها شخص آخر، لم أدركه بعد؟

هل كان الخوف نفسه هو من جعلني أفقد السيطرة؟ هل أصبح عالمي كابوسًا فقط لأنني بدأت أخشى أن يكون كذلك؟ وإذا كان الخوف قادرًا على تشكيل الواقع، فماذا عن الحب؟ عن الأمل؟ عن الرغبة في التحرر؟

الخروج من الصفحة الأخيرة

حين استيقظ الآبق، وجد نفسه أمام كتاب ضخم مفتوح على صفحة تحمل اسمه: "الآبق" منحوتا كوشم قديم .

لم يكن غلافه يحمل عنوانًا، فقط تلك الكلمة التي بدت وكأنها تلاحقه منذ الأزل.

بيدين متردّدتين، قلّب الصفحات. كان الكتاب يسرد تفاصيل حياته، منذ اللحظة الأولى التي وعى فيها على العالم. كل خطوة، كل قرار، كل لحظة شك أو يقين، كُتبت بدقة كما لو أن عينًا خفية كانت تراقبه منذ البداية.

قرأ عن الأيام التي تملّص فيها من الفرص، عن الأبواب التي أُغلقت خلفه، عن المرات التي وقف عند مفترق الطرق لكنه لم يختر، بل ترك الزمن يقرر عنه. كل ذلك كان مكتوبًا أمامه، وكأنه لم يكن إلا انعكاسًا لحياة مضت دون أن يترك فيها أثرًا حقيقيًا.

وحين وصل إلى الصفحة الأخيرة، وجدها فارغة.

حاول أن يقلبها، لكنها لم تتحرك. حاول أن يكتب، لكن الحبر لم يترك أثرًا. أدرك أن القصة لم تُكمل بعد، لكنها لم تكن خارج يديه أيضًا. الصفحة الأخيرة لم تُكتب لأن القرار لم يُتخذ بعد.

"هل كنت أهرب طوال حياتي لأنني لم أرد أن أكون مسؤولًا عن الصفحة الأخيرة؟"

"ما الذي يجعل الحياة ذات معنى؟ أن نعرف نهايتها، أم أن نعيشها رغم جهلنا بها؟"

وقف هناك، بين الحروف، بين الماضي الذي كُتب والمستقبل الذي لم يُحدد بعد.
كان يعلم أن الإباق لم يعد خيارًا، لكنه لم يعرف إن كان يمكنه المواجهة.
لأول مرة، أدرك أن حياته لم تكن مجرد رحلة هروب، بل فرصة لصنع أثر. لم تكن المسألة في النهاية المكتوبة، بل في كيف تُكتب. الصفحة الأخيرة لم تكن حكمًا عليه، بل بابًا ينتظر أن يفتحه.
وربما، للمرة الأولى، رغم كل ما فكر فيه لم يشعر الآبق بالخوف.

الخاتمة

في النهاية، وقف الآبق أمام المدى الذي لا نهاية له. في تلك اللحظة، أدرك أنه لن يجد نقطة النهاية التي بحث عنها طويلاً. لا أبواب، لا حدود، ولا بداية واضحة. الحياة كانت ولا تزال مجرد دائرة مستمرة من الأسئلة والشكوك التي لا تنتهي. لقد مر بالكثير من المحطات في رحلة الذات، ولكن كل خطوة كانت تزيده بعدًا عن إجابة حقيقية. ظل يبحث عن معنى، عن إجابة للعديد من الأسئلة التي تقضّ مضجعه، لكنه لم يجد شيئًا سوى الفراغ اللامتناهي.

أدرك أن مسعى البحث عن الحقيقة لم يكن سوى وهم، وأن كل الإجابات التي سعى وراءها كانت مجرد أفكار مرفرفة، لا تلامس أرض الواقع. كان عليه أن يواجه الحقيقية التي لا مفر منها: أن الحياة نفسها هي فراغ مستمر، وأنه، في النهاية، هو مجرد حلقة في سلسلة لا متناهية من التجارب والوجود.

ورغم ذلك، بدا وكأن الآبق في تلك اللحظة قد استقبل حقيقته. ربما لن يعثر أبدًا على جواب كافٍ يملأ فراغه، لكنه بدأ يفهم شيئًا أعمق: أن فقدان المعنى قد يكون هو المعنى ذاته، وأن التساؤل الدائم هو الحرية التي طالما سعى إليها. فالمعنى لا يأتي من خارجنا، بل من داخلنا، من القدرة على التفكير، من القوة الكامنة في الإصرار على العيش رغم عدم وجود إجابات واضحة.

وفي النهاية، مع خيوط الليل التي بدأت تغطي العالم، كان الآبق يقف هناك، منتظرًا دون أن يعرف ما الذي ينتظره. ولكن هذه المرة، لم يشعر بالخوف، بل

بالسلام الغريب الذي ينبع من تقبل الحقيقة: أنه سيظل دائمًا في دائرة، في حركة لا نهائية، يطارد نفسه ويهرب منها في الوقت ذاته.

والآن، وهو يقف في تلك اللحظة، لا يعرف إذا ما كان هو حقًا، لكنه لا يزال هناك. في مكان ما بين كونه فكرة أو إنسانًا، بين كونه جثة حية أو مجرد ظل، بين كل هذا، ظل الآبق في دائرة لا تعرف السكون، في رحلة دائمة للبحث عن شيء قد لا يأتي أبدًا.

وكان هذا، ربما، هو المعنى الوحيد الذي يمكن أن يقدمه له الوجود.

الآبق لم يعد في حاجة للإجابة.

تمت بحمد الله